منبر حر للثقافة والفكر والأدب

ديوان العرب تقدم لكم

اعترافات شبه مشبوهة

رواية

للأديب العراقي:

هيثم جبار الشويلي

الإهداء

إلى رجالات الديمقراطية وصنّاعها
إلى من ينشدون الحرّية بالحديد والنار
ويختبئون خلف الحرّيات المصطنعة والمقنّعة
إلى من يدركون أن الحرّية حقّ معلوم للسائل والمحروم
إلى ساسة البيت المزّق
البيت الذي يتّشح بلباسٍ أشبه بالكفن
وإلى اللواتي بِعْنَ أنوثتهنّ وتركن جمالهنّ وزاحمن الرجال في أفعالهم
إلى من تركت خمارها وعفّتها وباعتها بذلّ الدنيا وهوانها
إلى التي أيقنت بأن الدنيا زائلة بزوال أسبابها وأن الآخرة هي دار القرار يوم
لا محيص عن ذلك ولا محال
أهدي عملي هذا

المقدّمة

الرواية... هي أرشفة لوقائع وحوادث حصلت على أرض تكالبت عليها معارك جمّة ، أردتُ أن أبيّن في متنها الشخصية الأجنبية وعدم تمتّعها بالأعراف والعادات والتقاليد ، كما يفعل المجتمع الشرقي الذي تحدّه أعراف وقوانين عرفية لا يمكن اختراقها أو حتّى تجاوزها لكونها خطاً أحمر ، وهذا خلاف المجتمعات الغربية التي يباح لها أغلب الاشياء ، تتخلّل الرواية بعض المشاهد التي تميل نوعاً ما إلى الجنسية ، كما أوَدّ أن أنوّه أني لست ممن يميلون إلى الأدب الايروسي ، كونه يتبنى القصص والروايات الجنسية التي لا تعرف الانضباط ولا القوانين وليست لها أية علاقة أو تقّيد بالأعراف المتعارف عليها في المجتمع الشرقي ، وهذا النوع من الأدب يمتاز بسذاجته لأنه أقرب إلى الابتذال واقتطاف مشاهد جنسية بحتة تخلّ بقوانين الكتابة الحية التي تحمل بين طيّاتها الشغف والمتعة والإثارة ، وهذا ما نطمح له في متن الرواية.

الرواية... دراسة أشبه بالحقيقة لوقائع حاصلة فعلاً ، بعد اجتياح القوات الأمريكية لأرض العراق ، مروراً بجنوب العراق ووصولاً إلى قلب العاصمة بغداد.

الرواية... أشبه بمذكّرات أنثى أمريكية ، تعشق الحياة ، كانت تظنّ أنها في نزهة داخل العراق ؛ لكنّها وجدت العكس من ذلك ، لا أريد الإطالة عليكم ، لئلاّ تفوتكم تلك المشاهد الممتعة ، لذا أترككم والاستمتاع بلذّة القراءة.

مودّتي وتقديري

القاصّ والروائي

هيثم جَبّار الشويليّ

2009

المساء ينحدر تدريجياً نحو الزوال، وغداً صباحاً ألتحق بمراكز التطوّع المُعدّة لاستقبال المتطوّعين...
للمرّة الأولى أرغب فيها بالتطوّع لِعدّةِ أسباب، أشبه وأقرب للرئيسة، منها لا يحقّ لي إكمال دراستي الجامعيةَ إلا بعد أن أقضي قسطاً من الدهرِ ، على أقلّ تقدير أشهر في العراق كخدمةٍ إلزامية يتسنّى لي بعدها القبول في الجامعة الأمريكية، كما لا أخفيكم سِرّاً، فضولي وحبٌّ استطلاعي.. هما قسم من أمنيتي في التعرّف على المكوّن العراقي من جغرافية وتضاريس وشعوب وطوائف، كوني أرغب بالدخول في قسم علم النفس في جامعة (شيكاغو) الأمريكية، وسيكون ذهابي للعراق سفرةً ونزهةً جميلةً أولاً، ولدراسة الشخصية العراقية ثانياً، أعتقد أن دراسة الشخصية العراقية والبيئة المكوّنة لها ستنفعني كثيراً في دراستي الجامعية.
هذه الليلة موعدي الدائم مع صديقي (لورانس)، لأنني لا أفارقه، فلقاؤنا يومياً بعد الحادية عشرة مساءً ، نتسكّع ليلاً في إحدى الحانات النائية التي يديرها العمّ ديفيد ، كان العم ديفيد بشوش الوجه ، مرحاً نوعاً ما ، يميل كلّ الميل إلى الفتيات المراهقات، أكثر من ميله إلى الشباب المتميّعين، يمتاز بمكره وخبثه، وغالباً ما كان يختلي بي في إحدى الغرف السرّية النصف مضاءة الموجودة ضمن الحانة عندما أكون ثملةً جداً ، كان الطريق طويلاً بعض الشيء بين مدينتي التي أسكن فيها بولاية (ميريلاند) وحانة العم ديفيد ، إلا أنّ الطريق كان يفوق حدّ الوصف ، الأشجار تضفي على الطريق رونقاً جذاباً ، الهدوء يرتاب الطريق ، زقزقة بين الفينة والفينة ، تظهر تارة وتختفي تارة أخرى ،

أسيرُ وإلى جانبي لورانس الذي كان كظلّي، إلا عندما نصلُ إلى حدّ الثمالة ، فلا أكاد أعلم شيئاً ؛ كوني أفقد السيطرة على كلّ أعضائي ، ووقتها لا أستطيع التمييز بيني وبين ظلّي ، وقعُ أقدامنا تدكّ الطريق ، كالبطريق الذي يسير بانتظام على شاطئ البحر ، بينما يزيح لورانس تلك الأوراق المتساقطة بكثافة على الشارع برجليه ، فحانة العم ديفيد تُرى من بعيد ، أضواء الحانة أشبه بكتلةٍ من نور ، وفي الطريق فاتَحْتُ (لورانس) بقصّة ذهابي للعراق ولأن ذهابي شرطاً لإكمال دراستي الجامعية ، وغداً سأذهب لأحد مراكز التطوّع التي تجهّز الجنود والمجنّدات الراغبين والراغبات في التطوّع لاجتياح العراق ، كما أن ذهابنا هو لتحرير الشعب العراقي من خلال إسقاط نظام الحكم القائم فيه.
امتعض (لورانس) كثيراً من قصّة تطوّعي هذه ، ودبّ الذبول في تقاسيم وجهه ، اغرورقت عيناهُ بالدموع وخارت رجلاه وانهارت قواه الجسدية ، وأجهش بالبكاء الشديد ، أشبه ببكاء طفلٍ يئنُّ لفراق أمّه ، بعد أن حاولت تهدئتهُ جهد الإمكان ، اعتلتني رغبةٌ بتركِ هذه الفكرة ، إلا أن طموحي بإكمال دراستي كان العائق الوحيد أمامي ، كان ما تبقّى من الطريق للوصول إلى الحانة صعباً جدّاً ، لأنّ (لورانس) بدأ يخطُّ بقدميه الأرض ، ما آذاني جداً أنه بقي صامتاً حتى وصولنا الحانة ، كان العم ديفيد يزدادُ أُنساً برؤيتي ورؤية صديقي (لورانس) ، لأنه كان يشبعُ رغباته عندما أصلُ إلى قمّة السُكر ، وقت فقداني كلّ شيء لا سيّما عقلي.
لكنّ العم ديفيد لاحظ شيئاً غريباً هذه المرة ، مما حدا به إلى الاقتراب منّا ، كان وجه (لورانس) شاحباً تعتليه صفرة ، جفونه شديدة الحمرة ، أنعم النظر جيّداً في وجه (لورانس) وبادرهُ قائلاً:
- ما بك يا لورانس؟
فأشار بيدهِ لي ...
- سلها ولا تَسلني.

- ما بهِ يا (جِنيت)؟
- لا شيء، سوى أني سأذهب غداً إلى أحد مراكز التطوّع المتوجّهة إلى العراق.
استشاط العم ديفيد من هذا الكلام وشدّ حاجبيه إلى الأعلى وبرزت خطوط جبهته العريضة وكأنها خليج (تشيز بيك) ، الخليج الذي اكتشفه البحار الانجليزي (جون سميث) ، حاول العم ديفيد أن يبدد تلك الفكرة التي ملأت أمّ رأسي ، لكنّي كنتُ مصمّمة على تحقيق ذلك ، لأن ذهابي للعراق هو أيضاً جزءٌ مكمّل لدراستي الجامعية التي أودُّ أن أقضيها في جامعة (شيكاغو) الأمريكية.
عجز العم ديفيد عن تمزيق هذه الفكرة ، فقرر أن يكون مشروبنا هذه الليلة مجاناً وعلى نفقته الخاصة ، نظرات العم ديفيد... طوال جلوسنا أنا ولورانس على هذه الطاولة تبعث في نفسي الشك والريبة ، عيناهُ تتلذّذُ في تقاطيع وتقاسيم جسدي ، كان يطالع ساقَيّ العاريتين بعينيه الواسعتين الجاحظتين ويسترق بهما ما كان ظاهراً مني ، وهو ما دعاني لان أخاف هذه الليلة التي اختلفت عن باقي الليالي الأُخر.
(لورانس) تركني وخرج وحده- من دوني أنا- والعم ديفيد كان ينتظر في لذّة الانتظار ، يتسنّى مجيء الفرصة بين الحين والآخر ، لسحبي وجري إلى عاهرته السرّية ، تلك الغرفة النصف مضاءة المتميزة بأضوائها الحمر التي يفقد بها العم ديفيد كلّ قيمهِ وأخلاقه ، وتتساقط... تساقط اللحم المتهرّئ المصاب بعضالٍ خبيث كداء الجذام ، لكنّي خرجت من دون أن أحقّق له رغبته تلك.
للوهلة الأولى أخرج من الحانة دون (لورانس) ، أعودُ إلى بيتي ورأسي مشحونٌ بالكثير من الأفكار ، هل سأترك هذه الفكرة ، وأعود إلى صوابي؟ فللمرة الأولى أخرجُ برفقة ظلّي وصحبتة ، وحدي أخرج بلا (لورانس) ، الصديق الذي اعتدتُ عليه ، وعلى رفقته طوال حياتي ، يبدو أني سأرحل إلى

بلدٍ ليس فيه لورانس ولا العم ديفيد ، ولا حتى هذه الحانات ، ولا مدينتي (بالتيمور) التي نشأتُ وترعرعتُ فيها ، وهأنذا أستقي حناني منها ، كون هذه المدينة تقع في ولاية جميلة تدعى (ميريلاند) في الجزء الأوسط من الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ تطلّ على المحيط الأطلنطي ، ويعود اسم هذه الولاية إلى الملكة (هنريتا ماريا) زوجة الملك (تشارلز) ملك انجلترا.
ترفع المدينة شعارها (أفعال الرجال وكلام النساء) ، إذ إن لكلامِ النساء وقعاً كبيراً ، ومن أهمّ معالم الولاية (مالتيتري الأثرية) وقناة أو (هايو) و (تشيز بيك) ومتحف الأحياء المائية القومي ومركز الأبحاث العلمية في مدينتي ، وهي مسقط رأس الزعيم الأمريكي جون هانسون ، وهي أيضاً مسقط رأس الممثل جون وايكس بوث الذي اغتال الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن.
تحدّ ولايتي من جهاتها الأربع ولاياتٌ أربع شرقاً (ديلاوير) والمحيط الأطلنطي وغرباً (فيرجينيا) وشمالاً (بنسلفانيا) وجنوباً (مقاطعة كولومبيا) وتمتاز ولايتي بغاباتها الجميلة ، ومناخها الخلاب.
كانت كلّ هذه الأفكار تمزّق مخيّلتي وتحوّلني إلى كومةٍ من الدخان الذي سرعان ما يتلاشى بعد هبوب الريح ، لكنّي أدرت ظهريَ لكلّ تلك الأشياء والأفكار ، ولم تبقَ سوى بضع ساعات حتى يمزّق الليل أثوابه ويبزغ صبحٌ جديدٌ ، أبدأ فيه حياةً وأُفقاً جديدين.
استلقيتُ على فراشي لتداهمني الأفكار مرّة أخرى ، إذ لم تفارقني صورة صديقي لورانس ، بوجهه الشاحب وعينيه الحمراوين ودموعه التي تنحدر منهما لتسيل بخجلٍ شديد فوق وجنتيه ؛ يبتلّ رمشاه ويصبح كطفلٍ صغير يشفق عليه الداني والقاصي ، فكانت صورته هي الصورة الأخيرة التي راودتني قبل أن أغطَّ في نومٍ عميق.
راودني في تلك الليلة كابوسٌ مزعجٌ ومخيفٌ ، لكنّي لم اكترث له!.

نهضت من نومي متأخّرة بعد أن أخذ الكابوس القسمَ الأكبر من ليلتي الماضية ، إلا أني أسرعت بارتداء ملابسي ، وذهبت على الفور إلى مركز التطوّع.
كان المركز مزدحماً جدّاً ، و الطابور طويلاً نوعاً ما، ما يميّز تلك الطوابير في أمريكا ، هو أنّ الرجال والنساء في طابورٍ منتظم واحد وهذا خلاف ما لاحظته في العراق ، ففي العراق يُقسمُ الطابور إلى قسمين، قسمٌ للرجال وآخرُ للنساء ، لكنّ ما يميّز طوابيرنا أنّها تمتاز بالنظام بينما تفتقد الطوابير في العراق جمال النظام وعذوبته.
بعد تسجيل اسمي في مركز التطوّع ، عدتُ عند مغيب الشمس بعد أن قضيتُ بعض الوقت في النـزهة وصولاً إلى منـزلي ، حيث حُدِّدَ لنا اليوم التالي للتعرّف على ما بعد التطوّع ، يجب أن يخضع المتطوّع إلى عدّة دورات للوقوف على أهمّ الحقائق والمعلومات التي توفّر لنا الأمن والأمان ، ولا سيما أنّنا سندخل في حرب مع دولة كالعراق ، والعالم يعلم بأسره أنّ دولة كالعراق ، أوقفت في فترة ما من الفترات الزمنية أي في الثمانينات الزحف الكبير لخامس دولة في العالم من حيث العدّة والعدد المتمثل بالجمهورية الإيرانية طوال حرب الثماني سنوات، أودتْ بحياة الكثير من الأرواح البشرية التي سقطت طوال تلك الحرب المجنونة.
في هذه الليلة شعرتُ بتعبٍ شديد مما لاقيتهُ في ذلك الطابور الطويل الذي أرهق جسدي المنهك ، قررت وقتها عدم الخروج مع صديقي (لورانس) هذه الليلة ، وسأخلد للراحة ، إنها الليلة الوحيدة التي لم اذهب بها مع (لورانس) إلى الحانة ، ولم أرَ العم ديفيد الذي كان يستأنس برؤيتي يومياً في حانته النتنة التي تفوحُ منها رائحة الخمرة وعطر العاهرات.
وفي صباح اليوم التالي ذهبت حيث مركز التطوّع يقبع هناك ، فالمركز يحتوي على قاعة كبيرة تضمّ بين طيّاتها الكثير من المتطوّعين الذين جاؤوا للحصول على أهمّ المعلومات التي يجب أن تتوافر لكلّ المتطوّعين داخل العراق ، كانت

بحقّ معلومات قيّمة عن طبيعة المكوّن العراقي ، كنت دائماً أتشوّق لمعرفته، بالاضافة إلى كيفية تفكيك هذا المكوّن المتجانس فيما بينه وبالتالي السيطرة عليه ، سيطرةً تامّة ومحكمة ، أضف إلى كلّ هذا ما تلقّيناه من تدريب على بعض الأسلحة الخفيفة والمتوسّطة ، لأن هذه الأسلحة ، أسلحة شخصية وهي التي سترافقنا على أرض العراق.
بعد يومٍ متعب عُدْتُ منهكة ، متعبة من التدريب لتخبرني أمي أنّ (لورانس) جاء البارحة يسأل عني إلا أني كنت عائمة في وادي النوم وقت إذ.
انقطعت عن (لورانس) والعم ديفيد ما يقارب خمسة عشر يوماً ، بسبب دخولي ضمن دورات التدريب التي أعدّتها لنا القيادة الأمريكية هناك ، لكني كنتُ أشتاق بين الحين والآخر لصديقي (لورانس) ، وفي اليوم الأخير من الدورة تمّ تبليغنا بالتوجّه إلى دولة الكويت أولاً للإقامة في قواعدنا ، التي ستكون البداية ومن خلالها سننطلق إلى اجتياح الحدود العراقية الملتهبة وصولاً إلى قلب عاصمتها مدينة السلام ، وحُدِّدَ لنا يومان للسفر حيث قواعدنا في دولة الكويت ، وسأغادر أنا أرضي ، ولايتي ، ومدينتي ، التي سأفارقها للمرة الأولى ، حاولت في هذين اليومين ، أن أتشظّى وأستجمع كلّ ذكرياتي التي قضيتها في مدينتي (بالتيمور).
انقطع عنّي (لورانس) بعد أن عَلِمَ أني ضمن الدورات التي تقيمها مراكز التطوّع ، وكانت تلك الليلة التي سأل فيها أمي عني عندما كنتُ نائمة ، آخر ليلة جاءني بها ، لذا قرّرتُ الذهاب له، وسنستمتع بسلوكنا الطريق نفسه المؤدّي إلى حانة العم ديفيد ، فقد اشتقتُ كثيراً لأن أرى الأشجار المحيطة التي تتدلّى أغصانها على دفتي الطريق ، وكما اشتقت أيضاً أن أضع يدي بيده وأهديه قبلة الوداع التي كنّا نتبادلها عندما يزدحمُ الطريق بلا شيء من المارّة ، ووقت انتصاف الليل يبدأ القمر بمداعبة النجوم ، كما يداعب صديقي جدائلي المتدلّية على كتفَي ، طلب منّي لورانس أن نقضي هذه الليلة تحت

ضوء القمر ، بعيداً عن صخب وضوضاء حانة العم ديفيد، أخذت تلك الليلة مأخذاً كبيراً مني ، لأنها اختلفت عن باقي الليالي.
ثَمَّةَ أشياء كثيرة تدور في بال لورانس ، هذا ما تفرّسته ولاحظته بادياً على تضاريس وجهه، نحن الليلة بعيدان عن زجاجات الخمرة والبيرة التي يفقدُ إثرها الشخص نعمة العقل التي أنعم الخالق بها على الإنسان وبهذه النعمة يميّزُ الإنسان من الحيوان ، أحسستُ بأنّ لورانس يُريدُ أن يُخلدَ هذه الليلة، فهي الليلة ما قبل الأخيرة ، ليلةٌ أطلقتُ بها العنان لصديقي لورانس الذي أخبرته بأن يفعل في هذه الليلة ما يحلو له.
أمّا اليوم الأخير فقد قضيته في مدينتي (بالتيمور) وكان مخصّصاً لحزمِ أمتعتي وتوديع أمّي ، فعند الرابعة عصراً يجب أن أكون في المطار للتوجّه إلى دولة الكويت التي ستكون المحطّة الأولى بالنسبة لنا.
بعد خروجي من المنزل متوجّهةً إلى المطار ، صادف مجيء صديقي لورانس الحاضر دوماً لمرافقتي وتوديعي واصطحابي حيث الطائرة تنتظر ركّابها في ساحة المطار ، وما أن وطئت قدماي أرض المطار حتى انبجست من عينَي أمّي الدموع بغزارة، ، فهي المرة الأولى التي تفارقني فيها ، كما لا أخفيكم أنّ لورانس أجهش بالبكاء أيضاً ، فالمنظر زاد من استيائي كثيراً ، لم أتمالك نفسي وأنا أنظر لوالدتي ولورانس اللذين يكفكفان دموعهما بيديهما ، سقطت على إثرها دموعي التي كانت تسيلُ بحرقةٍ وألم ، قبلتهما قبل أن أفارقهما ، قدماي تتثاقل شيئاً فشيئاً فوق السلالم المؤدّية إلى باب الطائرة ، جلست بالقرب من إحدى النوافذ ، لتكون هذه النافذة هي المحطّة الأخيرة التي أرى بها أمي مع لورانس ، لكنّي فوجئت بالعم ديفيد جاء مهرولاً لتوديعي وهو يناديني باسمي كمخبولٍ (جنيت) .... (جنيت) ، إلا أنّ قبطان الطائرة أدار محرّك الطائرة التي أصدرت صوتاً قويّاً للمحرّك الذي بدّد صوت العم ديفيد ، فما كان بوسعي إلا أن أودّعه من خلال النافذة الصغيرة التي أطلّ بها على تلك الأجساد الواقفة فوق أرض المطار ، الأمر الذي حزّ في نفسي هو عدم

رؤية العم ديفيد في تلك الليلة التي بتنا أنا ولورانس تحت شجرة من ذاك الشجر الذي يبدو ظلّه كظلام حالك.
الطائرة تفرد جناحيها تحلّق عالياً وعالياً بعيداً عن أجواء الولايات المتّحدة ، كالنسرِ الذي يحوم في غابة واسعة ، كان يجلس إلى جانبي أحد الجنود ، الذي يمتاز بحمرة وجنتيه اللتين تشُعّان نظارة ، وعينيه الزرقاوين ، شعره مائل إلى اللون الذهبي وقريب من الشُقْرةِ ، وسيماً وجميلاً ، يدعى (سيجال) ، كان يضايقني بين الفينة والفينة ، مهووس باحتساء الخمر ومشتقّاته ، لا يفضّل الكلمات كما يفضّل الحركات ، وبين الحين والآخر تستقرّ يده بالقرب من قمّة فخذَيّ.
ثمة أفكار غريبة تدور في حسبانه ، يستتر خلف عينيه الزرقاوين خبثٌ ولُؤمٌ شديدان ، راودني شعورٌ وإحساس بتذمّرٍ شديد ، ليس لأنّه حاول أن يضع يده في أماكن غير لائقة من جسدي ولا لأنها المرّة الأولى التي يضع أحد يده في مكان ما كهذا من جسدي إلا أنّ نفسي لم تستسغه ، ولم تتقبّله كما تقبّلت يد صديقي لورانس التي روّضها فوق سارية جسدي كما تروّض الأسُودُ اللا أليفة في أقفاصها الحديدية ، ولا حتّى سرقات العم ديفيد لجسدي الذي تفارقه الروح في غرفتهِ العاهرة بعد أن أصل حدّ الثمالة التي أفقد بها وعيي بل أفقدُ بها كلّ شيء حتّى عقلي وقواي ليفعل بي ما يحلو له.
كان (سيجال) ثقيل الظلّ ، كثير الأسئلة ، يوَدُّ انتزاع شيء ما منّي بثرثرته اللامتناهية :
- ما اسمك؟
- (جنيت)، كنت أقولها ، والامتعاضُ يصلُ حتّى صدغي.
- كم عمرك؟
- عشرون عاماً.
- ما وظيفتك؟
- مازلت طالبة ، وبعد عودتي من العراق ، سأكمل دراستي .

- ما هو القسم الذي ترغبين الدخول به في الجامعة؟
- أرغب بدراسة علم النفس ، وسيكون سفري إلى العراق ، ودراسة الشخصيّة العراقيّة هي من أهمّ مهامّ دراستي ، كما سأتناول شخصيّتك الخبيثة على هامش الدراسة.
- أين تسكنين؟
- في مدينة (بالتيمور) الواقعة ضمن ولاية (ميريلاند).
- هل جربت أن تكوني صديقة حميمة لشابّ جميل ولطيف؟
- نعم.
- هل هو أنا؟
- كلا.
- إذاً ما اسمه؟
- (لورانس) شابٌ جميل ووسيم ، ومن فرطِ حبّهِ كان آخر من ودّعني في المطار مع أمي
- هل ترغبين بشربِ شيء؟
- كلا ، شكراً.
- هل جرّبتِ ، أن تكوني في يومٍ من الأيام ، شابة ذات كيان واستقلال خاصّ بحياتك الشخصية؟
- ما تقصد بسؤالك هذا؟
- أعني ، هل أطلقت العنان لهذا الجسد الجميل وذاك الصدر الممتلئ أن يتأوّه تحت سياط جسدٍ آخر.
- هذا شيءٌ لا يعنيك؟
- أنت شابة جميلة جدّاً ، ما يميّزك عن النساء في أميركا شعرك الأسود ، الذي يذكّرني بالليالي الحالكة الشديدة الظلمة ، وعيناك السوداوان ، وبشرتك البيضاء التي تشوبها سمرةٌ خفيفة، وفمٌ جميل تحرسهُ شفاهٌ أجمل ، كما

سأطلعك على سرٍّ جميل... تمتلكين صدراً يشدُّ انتباه الناظرين ، فلو دعوتك في يومٍ من الأيام إلى فراشٍ يأوينا نحن الاثنين ، هل ستوافقين على ذلك؟
- يومها سأعمل بصوابي ، وسأفكّر في الأمر ، لذا أرجوك ليس لهذا الكلام داعٍ الآن ، لأننا داخل طائرة تحلّق وسط السماء.
السماء صافية سوى بعض الغيوم هنا وهناك ، دموع أمي ، وجه لورانس ، صياح العم ديفيد لم يفارقني طوال الطريق.
- ما بك يا (جِنِيتْ) ؟
- كلا لا شيء ، لكن يشدّني حنينٌ بين الحين والآخر للعودة إلى أحضان أمّي وشوارع مدينتي.
- لِمَ لا تقولي إلى أحضان صديقك (لورانس)!!
شعرتُ لكثرة تساؤلاته تلك بأنه يحاول أن يستقطبني في الكلام ويوَدُّ معرفة كلّ التفاصيل عن علاقتي بصديقي (لورانس) ،كما انتابني شعور بأنه يريد أن يمارس طقوس الاشتهاءات والنشوات الروحية معي ، وفوق جسدي المسكين الذي تكالبت عليه نظرات الرجال الطوامح ، لذا فقد قرّرتُ أن أكبح لسانه الذي ما انفكّ يسألني ، فبادرته بالسؤال لأخفّف عنّي وطأة الأجوبة التي أرهقتني وسط الكمّ الهائل من الأسئلة التي أحتفظ بها لنفسي ؛ كونها تمتاز بوقاحتها ولا تنمُّ عن شابٍّ يمتلك أدنى مقوّمات الحياة.
- حدّثني يا (سيجال).
- كم عمرك؟
- عمري ، اثنان وعشرون عاماً ، وأسكن في قلب ولاية (كاليفورنيا)
- ما تحصيلك الدراسي؟
- حقيقة الأمر ، لم أفلح في دراستي ، لأن ما حصل بين أمي وأبي من خلافات هو ما أودى بي أن أقضي حياتي بين العاهرات والشوارع المظلمة والأزقّة النتنة وشرب الخمر والنوادي الليلية ، آه لقد كانت قصّة أبي مع أمي هي أهمّ الأسباب التي أطاحت بي على الرغم من أني كنت وقتها في زمن

المراهقة المبكّرة ، لتخطفني زجاجة البيرة والويسكي ، إلى أبعد ما يتصوّر الإنسان العاقل ، جعلتني تلك الزجاجات بألوانها البرّاقة الداكنة ، أن أصل إلى مستوى الحضيض.
ليت لي يا (جِنِيتْ) طموحا رائعا كطموحك ، لذا... آملُ من الربِّ والسيّد المسيح أن يرعاك ويحقّق لك ما تصبين إليه.
- أحسست بأني كنت ظالمة له عندما وصفتهُ بالخبيث والعاهر، ولا يمتلك أدنى مقوّمات الحياء ، وإنّ لأمه وأبيه وقعا كبيرا عليه ، لأن المشكلّة بينهما ، هي التي أودتْ بشابٍ كسيجال إلى مستنقع من الهاوية.
- حدثني يا (سيجال) عن قصّة والديك.
تنهّد سيجال ، وأطرق برأسهِ حياءً إلى الأسفل ، ليعود مرة أخرى ليمعن النظر ملياً بملامح وجهي.
- عفواً يا (سيجال) ، يبدو أني أيقظتُ فيك جرحاً عميقاً بل قديماً.
- كلا ، إنها الحقيقة ، لكن كانت حقيقة مُرة ، أطاحت بي ، وقادتني حيث مستنقعات الرذيلة تدريجياً من حيث لا أشعر.
- على أية حال ، أُقدّمُ اعتذاري لك مرة أخرى ، ولا داعي لان تقصّ عليّ قصة والديك.
- كلا... سأقصُّ عليك قصّة والدَيّ.
- لا حاجة لي باستفزاز جروحك القديمة ، فاحتفظ بالقصّة لنفسك ، أو اتركها للزمان فهو كفيل بمحوها.
- كلا ، فالقصّة مازالت كالكابوس الجاثم على صدري منذ سنين ، وسأشعر بالراحة وقت أن ألقي بأحداثها على مسامع الآخرين ، فهم من يخفّفون عنّي ألم الصدمة ووجع السنين.
- لقد كان أبي (توم) رجلاً وسيماً أنيقاً ، ذا منظر خلاب ، يعشقُ والدتي (رايتشل) إلى حدٍّ كبير ، كان لوالدي صديقٌ حميم يدعى (روبنـز) ، وكان (روبنـز) ذا بنية جسمية قوية، يمتاز بضخامة بدنه لا بترهّل جسده ، وكان

والدي يجلبه معه في بعض الأوقات إلى المنـزل ، كان والدي يعمل مع صديقه (روبنـز) في أحد المصارف الأمريكية ، كنت وقتها في الصفّ الأوّل الابتدائي ، كنت محفوفاً بعناية أبوية فائقة النظير ، امتاز عن أقرأني في المدرسة بهذه العناية الأبوية الفائقة التي لا يمكن لي وصفها ، كانت والدتي (رايتشل) تعشق والدي (توم) حدّ الجنون ، إلى أن شاء القدر أن يكون والدي حبيساً لأربعة جدران إثرَ اصطدامه بسيارة مسرعة كان صاحبها ثملا من جرعات السُكْر الشديد التي كان يحتسيها في إحدى الحانات ، ليصاب والدي بكسرٍ في ظهره ، رافقه بعد ذلك شلل رباعي ، قتل فيه آماله وطموحاته ، أراد والديَ أن يصارع المرض ويتغلّب عليه بعد عدّة جلسات من العلاج الطبيعي ، وهذا الأمر لم يرق لوالدتي التي غابت عنها تلك الليالي النرجسية ، التي كان والدي يصولُ بها ويجول ، كان والدي إذا اختلى بها في غرفتهما القريبة من غرفتي ، أسمع أنيناً لوالدتي عندما يجتمع والدي بها ، يخرجُ ذاك الأنين من غرفتهما ، كنت أشعر بالخوف الشديد لذلك الأنين ، وانتابني شعورٌ غريب بأن أطرح سؤالاً عن سبب ذلك الصوت الذي تصدره الغرفة ، لأنني سمعتُ جدّي (لِيو) يقول عندما كنتُ في الخامسة من عمري ، إن هناك أرواحا شرّيرة تحاول أن تفتك بالأرواح التي نستأنس بها ونحبّها، فسألته وقتها عن ماهية تلك الأرواح فقال لي تدعى العفاريت ، وهي أرواحٌ خفية تحاول النيلَ منا ، فإذا صادفتك في يومٍ من الأيام ، فحاول الابتعاد عنها قدر المستطاع كي لا تطيح بك.

كنت أظنّ بأن ذلك الصوت هو ما تصدرهُ تلك العفاريت ، إلا أنّي سألت والدتي ذات يوم عن مصدر ذاك الصوت لتجيبني قائلة: إنها طقوسٌ خاصّة نمارسها نحن الاثنان ، أنا وأبوك ، وما كنت أفقه ماهية هذه الطقوس التي تكاد تكون أقرب للغريبة.

عندها تأكّدتُ بأنّها لم تكن أصوات العفاريت كما قال لي جدّي المسكين الذي قاطعته أحد الأيام أثناء حديثه حول العفاريت ظناً منّي أنّ الأصوات قد تصدرها أرواحُ تسكن الجدران التي تحيطُ بنا.
كان (روبنـز) يزور أبي بين الحين والآخر في غرفته الخاصّة الأمرُ الذي شدّ انتباه أمي بأن تمارس معه الخطيئة بعد غياب أبي عن البيت وخروجه أثناء مزاولة علاجه الطبيعي ، اقتادت أمي (روبنـز) إلى حيث يرى والدي كالمعتادِ في غرفته، لكنه تفاجأ بعدم وجود أبي في الغرفة ، وهذا ما أجبره على ممارسة الفاحشة مع أمي التي أوقعته في شباك مكرها ودهائها ، وقت إذ... سمعتُ نفس الأنين التي تصدره تلك الغرفة الملعونة، إلا أنه لم يكن ذاك الأنين بوجود والدي لكن كان بوجود صديقه (روبنـز) ، في هذه الأثناء صادف مجيء والدي من علاجه ، إلا أن وقت مجيئه هذا لم تعتد عليه والدتي ، كونه أحسّ بإحساسٍ غريب ، وهذا ما حدا به لأن يقطع ذاك اليوم علاجه ليعود إلى المنـزل ، كنت وقتها في غرفتي ، أضع رأسي بين ركبتَيّ فذلك الأنين يبعثُ في نفسي الخوف والاشمئزاز من تلك الأرواح الشرّيرة ، سمعتُ دبيب عجلات العربة التي يمتطيها والدي دوماً كدبيب النمل ، اقشعرّ جلدي ، ووقف شعر رأسي ،لأن والدي كان عصبيّ المزاج ، ذا نفسية متعبة مرهقة ، يائسا من الحياةِ ، قريبا من الموت ؛ بسب حالته النفسية التي جناها من جلوسه وسط العربة ، وأحسستُ وقتها بوقوع أمرٍ ما أو مشكلّةٍ كبيرة ، وبينما أُحدّثُ نفسي ، سمعت صوت إطلاقٍ لبعض الرصاصات التي مازال صداها يرنُ بأذنيَّ، بعد بضع دقائق عمّ الهدوء المكان، وبتُّ لا أسمعُ لعجلة والدي أيّ دبيب ، ولم أسمع لها أيّ حسيس ولا نجوى ، حتى أنين والدتي اضمحلّ هو الآخر وانتهى إلى حيث لا رجعة ، كنتُ أؤمن بما قاله لي جدّي من القصّة التي رواها لي عن العفاريت ، كنت ساذجاً جدّاً لتصديقي إياه.
تسلّلتُ تدريجياً وبهدوءٍ لكي أفتح باب الغرفة التي استوطن بها كلٌّ من أبي وأمي ، فتحت الباب بكلّ أدب كونهما هما من علّمانِي الأدب ، إلا أني لم أجد

تلك الأرواح الجميلة التي كانت تداعبني يومياً ، رأيت أمي وقد فارقت أثوابها جسدها الجميل ، كما كان العم (روبنز) عاريا تماماً هو أيضاً ، يعومان في بركةٍ حمراء من الدماء وقد فارقت روحاهما الحياة.
وجدتُ والدي لا يحرّك ساكناً ، وقد سال خيطٌ من الدمِ من قمّة رأسه وهو جالس فوق عربته التي فضّلت الإنصات والسكوت لهذه المأساة ، جثوتُ عند رجليه ، توسّلت إليه ، أن يكلّمني حتى ولو كلمة واحدة ، وما إن حرّكتهُ حتّى سقط على الأرض ، فما كنتُ أعلمُ أنّي قد كلّمتُ ميّتاً بلا روح قد فارقت روحهُ الحياة ، عدتُ لوالدتي لأقَبِّلَ تلك الأنامل التي كانت تمسحُ بها على رأسي ، كلّما اشتقتُ لأن أستزيد من عطفها وأنهل من حنانها ، وانتابني شعورٌ بالاشتياق والاستلقاء بأحضانها، لكنّي أيقنتُ بأنّ روحها هي الأخرى قد فارقت الحياة، كان مشهداً مأساوياً بالنسبة لي ، تمنّيت وقتها أن لا أرى هذا المنظر.
بدأ الأطفال يحاربونني، بعدما كنت أفضلهم وأحسنهم، بعد فراق والدي شعرتُ بنقصٍ كبير يدبُّ في جسدي ومخيلتي ، أخذ الاضمحلال مأخذاً كبيراً منّي لا نظير له ينسابُ إلى أوصالي يقطعني ويقتلني ، المنزل تجتاحه مجموعة من الأشباح ، فأصوات الأنين مازالت عالقة وقتها في مخيلتي ، أصبحتُ وقتها يتيماً وعرفت معنى أن يفقد الإنسان والديه ، أصابني الانكسار والذبول والركون إلى هذه الدنيا البذيئة التي لا طعم لها سوى جمال الإنسان ووجوده ، اشمأزّ مني كلّ الأطفال الذين في سنّي والذين يكبرونني ببضعِ سنين ، الكلّ يعيّرني وأصبحت مستقراً ومستودعاً لحجارتهم التي تسقط على رأسي وفوق كتفيّ وعلى أنحاء متفرقة من جسدي ، أما الضرب فما كاد يفارقني ، فأيديهم تنهال عليّ بين الفينة والفينة، أصبحت ضحية للجميع ، بدأت أفقد تركيزي على دراستي ، بعد أن عصفت بي الريح في أحد الملاجئ التي يعرفُ من خلالها المعنى الحقيقيّ لليُتْم ، ويُعرفُ أيضاً ما معنى أن يفقد الإنسان أعزّ مخلوقين في هذا الكون الكبير ، هذه الأسباب هي التي

جعلتني أرسب تلك السنة ، كانت من أصعب السنين التي مرّتْ عليّ ، لم أوفّق بعدها نهائياً ، كانت الظروف المأساوية التي واجهتها من المجتمع آنذاك ، لا لذنبٍ اقترفته ، إلا ما لحقني من والدَيّ .
حقدتُ على بني البشر ، الذين لم يكفّوا عن إهانتي وتوبيخي ، وكأن هذا الكون بأجمعه لم يرتكب أي خطيئة ، بل كأنهم لم يدركوا أن آدم أنزل من السماء بسبب الخطيئة التي ارتكبها ، تواريت وتلاشيت دراسياً ، كان ملاذي الوحيد هو التشرّدُ والحرمان ، مما لاقيتهُ من اضطهاد كبير ، كان الأطفال المشرّدون هم أصدقائي ، السرقةُ هي مصدر رزقي الوحيد ، الدعارة هي ملجئي ، الشغبُ والتخريب هما المصدران العامّان اللذان قد طغيا عليّ ، كبرتُ ونبت لحمي من التشردِ والاضطهاد والحرمان ، بعد أن كنتُ أعيش في خضمّ رعاية أبوية كبيرة ، اقتادني صديقٌ لي يدعى (إيدي) إلى بوابة من بوابات العالم السفلى ألا وهي بوابة السرقة ، فكان معلّمي الأوّل ، وكانت السرقة هي البوابة الأولى التي من خلالها دخلت هذا العالم الرذيل ، القبيح ، المليء بالهموم والمتاعب ، كم أتمنّى أن تنزل من الربّ لعنة لا تذرُ (إيدي) على هذه الأرض ، هو من ساقني حيث الحرمان والابتعاد عن الدراسة والتلذّذُ بزجاجة الويسكي ، والتحرّش اللا أخلاقي بأغلب الفتيات اللائي صادفنني.
لذا فقد أحببتُ أن أضايقكِ في بداية الطريق ، مذ جلستُ بالقرب منك على مقعد هذه الطائرة ، فهذه المضايقة هي جزءٌ من أخلاقي التي ما عدتُ أتنصّلُ عنها ، إلا أنّك استدرجتِ فيَّ جرحا عميقا، أيقظ في نفسي صحوة جعلتني أتخلّى عن فكرة التحرّش بك ، و ستكونين صديقة عزيزة على قلبي ، لأنكِ أوّل من يطلّع على هذه القصّة التي كان أبطالها أبي وأمي وصديق والدي (روبنـز) ، ومنذ ذلك الوقت وحتّى الآن قلبي يقطرُ قيحاً ، وحقدي يملأ العالم برمّته.
- (جِنِيتْ) مابكِ؟ أرى بوجهك أسئلة ثكّلى ، تبحث عن أجوبة؟
- كلا لا شيء ، لكن قصّتك كانت مثيرة للغاية.

كنتُ ناقمة لـ (سيجال) في بداية الطريق، كونه كان يضايقني نوعاً ماً بتحرّشاته الجسديّة تلك ، لكنّي أحسستُ بظلمٍ كبير له.
صوتٌ يصل إلى مسامع الركاب الذين يستقلّون متن الطائرة ، التي تحلّق بجناحيها الكبيرين وسط ركام الغيوم المتراصّة والمتّحدة مع أفق السماء ، لم يبقَ سوى عشرين دقيقة للوصول إلى أحد المطارات ، التي ستهبط بها الطائرة للاستراحة والتزوّد بالوقود ، أعتقد أنها إحدى الجمهوريات العربية ، لم أتذكّر اسمها للآن ، إلا أنّها دولة عربيّة ، قضيت يوما ونصف اليوم هناك ، لم تكن لي ذكريات ، لم تكن أيضاً أحداث مشوّقة تستحقُّ الكتابة ، إلا أنها أيامٌ بقيتْ عالقة في ذاكرتي ، كان المطار الآتي هو مطار دولة الكويت ، الذي يمتاز بالنظافة والجمال ، الحافلات تُقُلّنا من المطار إلى حيث الفنادق الفارهة ، الكبيرة ، المجهّزة بكلّ وسائل الراحة لكلّ الجنود والمجنّدات ، في المطار فارقتُ صديقي (سيجال) وفي الفندق الأسِرّةُ البيضاء والستائر الفاخرة والجدران الرائعة التي تسطعُ نوراً كأنّها مرايا وضعت لترى من خلالها مظهرك الخارجي.
في الفندق تعرّفتُ على صديقةٍ أخرى لي اسمها (ماريا) ، كانت (ماريا) جميلة ، ودودة ، شقراء ، ذات بشرة بيضاء ، عيناها خضراوان ، سألتها عن سبب انخراطها وتواجدها ضمن قطعات الجيش الأمريكي المُعَدّ لاجتياح العراق ، أجابتني قائلة : الفقر والعوز والحرمان من أهمّ الأسباب التي قادتني لأن أتوجّه إلى مراكز التطوّع ، بسبب التفكّك الأسري وعلاقة والدي بأمي غير الحميمة التي أدّت إلى طلاقهما ، وبتوجّه أمي إلى صديقٍ آخر وأبي لصديقته هو الآخر ، افترقا كثيراً عني ، شعرتُ بالفراغ الأسريّ والعاطفي ، تولّدت لديّ الكثير من الأفكار منها الالتحاق بمراكز التطوّع للهروب من الواقع المرير ، الواقع المزري ، الواقع المؤلم ، الذي أعيشه في أمريكا ، لذا قرّرتُ حزم أمتعتي والتوجّه للعراق ، وهي دعوة للتنفيس والخلاص مما لاقيته على يد والدي من قمعٍ عاطفي.

- عزيزتي (ماريا) : هل أتممتِ دراستك؟
- كلا لم أتممها ، المشاكل التي نشبت بين أبي وأمي ، أخذت مني حيزاً كبيراً ومدى واسعاً وصدى لا حدود له ، كانت مشاكلهما تخور في أمّ رأسي ، تدور حول عنقي ، تطوّقني بحبل متين يكاد يخنقني ، تخرجني تلك المشاكل من العالم القريب إلى عالم كبير لا حدود له ، كنت أقترب ، أقترب من دروسي ، إلا أن المشاكل التي تعصفُ بي تأخذني إلى عالم مليء بالخيال، تقتادني إلى حيث لا أدري ، إلى حيث اللاشعور ، إلى عالمٍ غريب لا أكاد أفقهه ، إلى انقسامات أعيشها ريثما أستقبل دروسي بالتذكّر والمراجعة ، أصبحت في فجٍّ عميق ، تجذبني معارك والدَيّ أكثر من أن تجذبني الدروس ، وقتها قرّرتُ أن أترك دروسي ، لأنتقم من والدَيّ اللذين أوصلاني إلى هذه الحالة ، ولم أدرك بأني قد نقمت من نفسي وظلمتها أيّما ظُلم، بعد أن تركت مدرستي عشتُ فراغاً كبيراً ، لذا قرّرتُ أن أنتشل نفسي من هذا الواقع المرير ، لأعيش مرحلة جديدة وفي أحضانٍ جديدة ، علّها تنسيني ما لاقيته من أبي وأمي.
- مسكينة أنت يا (ماريا) ، أتعلمين أنني تعرفت على صديقٍ لي على متن الطائرة ، قبل التعرّف عليك ، كانت مشكلّته التي واجهها كبيرة ، فقد فَقَدَ أمه وأبيه في مجزرة الشهوات والملذات الدنيوية ، وهما من أوصلاه إلى حالة مأساوية ، يرثى لها ، كانت قصّتهُ غريبة للغاية ، سقطا إثر ذلك جثتين هامدتين لا تتحرّكان، أما أبوك وأمك فهما من أوصلاك إلى نفس الطريق، أتدرين يا (ماريا) إن أبي كان لا يفارق أمي ، كان يحبّها حبّاً جمّاً، كان يعشقها حدّ النخاع ، أعتقد أنّه لم يغازل امرأة قطّ قبل أمّي ولا بعدها ، كنتُ سعيدة بأبي، وكان مثلي الأعلى ، في كلّ شيء.
بعد وفاته... أي قبل ستّ سنين ، كانت أمي مثالاً رائعاً في الحبّ والوفاء والإخلاص ، لم تشأ أن يتربّع على عرش جسدها أيُّ رجل بعد أبي ، كانت تُذكّرني دوماً بوالدي وتقول لي يا (جِنِيتْ) ليتك تتزوّجين رجلاً يحمل صفات وأوصاف أبيك، يحافظ عليك يقدّسك ، يجعلك قبلة له ، يحُجُّ إليك صباحاً

ومساءً ، فإذا تعرّفتِ على شخصٍ يحمل المواصفات والأوصاف نفسها ، فلا تتردّدي ، وليكن القبول هو الهدف والغاية اللذانِ تبحثين عنهما.
- كم أتّمنى لك... عزيزتي (جِنِيتْ) تحقيق هذه الغاية.
- إذن دعينا نتناول طعام العشاء قبل أن نخلد للنوم ، لأننا سنذهب غداً صباحاً إلى المعسكرات المعدّة لتدريبنا والتي سننطلق منها للدخول إلى العراق.
ثمة أصوات تعجُّ وتضجُّ منادية بالرحيل إلى المعسكر، وترك هذه الفنادق الفارهة مع بزوغ فجر جديد ، ينعم بصباحاتٍ تُؤطّرها زقزقة العصافير ، الناهضة مع شروق الشمس بخيوطها الذهبيةً.
صخبٌ يعمُ المكان ، وانتقال جديد من الفنادق الفارهة حيث المعسكرات المُتربة ، كنت أبتعدُ كثيراً عن المجنّدين والمجنّدات اللائي من جنسيّتي الأمريكية ، لأزداد تعرّفاً على جنسيّات أُخَر ، لأنّ المعسكرات تضمُّ الكثير من القوّات المتأهّبة ، المتعدّدة الجنسيات ، تعرّفتُ على فتاة وسيمة أيضاً من إيطاليا تدعى (كرستينا) وأطلعتني على مذكّراتٍ جميلة لها بالصور مع صديقها (سمث) ، أسفل برج بيزا، فألبوم الصور يضمُّ بين دفتيه صورا في غاية الروعة ، تذكّرت وقتها صديقي (لورانس) الذي بدأ بالتلاشي بعد أن ابتعدتُ عنه ، إلا أني كنت أتذكّره بين الفينة والفينة ، تذكّرت أيضاً العم ديفيد الذي كان يُثقلُ بمداعبته إيّاي ، وقت احتساء القعر الأسفل من الكأس الذي يحتوي بداخله مكعبّات من الثلج التي تذوب خجلاً تحت حرارة المشروب تُصْدر قرقرة لا تسمعها سوى أُذُن تمتلك إحساسا مرهفا لقرقعة اصطدام الكؤوس ، تذكّرتُ وجعي ، ووجع العصافير ، وتذكّرتُ وجه أمي ، تذكّرتُ ولايتي (ميريلاند) ، تذكّرتُ مدينتي (بالتيمور) وكلّ معالمهما الجميلة، تعرّفتُ على الكثير من الأصدقاء والصديقات من خلال تجوالي ضمن القطعات الموجودة في المعسكرات.

وعند فجر مظلم ، توجّهنا صوب الحدود الكويتية المحاذية للعراق ، كانت الأنباء تشير إلى تجحفل الجيش العراقي على الحدود أيضاً ، كنتُ أتوقّع بأنّها ستكون نزهة لنا ، وكنتُ وقتها أتصوّر بأنّ الشعب سيفرش لنا الأرض ورداً ، وستتلقّفنا الأمّهات بالزغاريد ، كان سلاحنا الجوّيّ يوزّع الرعب وينشره على أرض الواقع ، في المنشآت ، المرافق الحياتية ، البنى التحتية، دمارُ شعب بأكمله ، هنا وهناك ، الحجارة تلسع أجساد البشر ، بعد استعراض سلاحنا الجوي عضلاته ، جاء الوقت للسلاح البري هو الآخر يستعرض عضلاته الفخمة، معارك كبيرة وقوية ، وقتها كانت مخيفة للغاية ، لم أتصوّر أني سأخوض معارك بهذه الوحشية، وهذا الانتقام، أنا التي كنت أعشق الموسيقى الكلاسيكية والصاخبة في الملاهي والرقصات الرومانسية وكأس النبيذ والكحول والارتماء بأحضان (لورانس) بعد أن يرتدي الليل عباءته السوداء ، عند منتصف الليل والسير في طريقٍ حيثُ حانة العم ديفيد تغصّ بأكواب الخمر ، وأجساد العاهرات ، ما كنتُ أتصور أني سأصل إلى هذا الحدّ ، أصوات الرصاص من كلّ مكان ، رشقات عنيفة للمدافع مزّقت أذُنَيّ وبدّدت أحلامي ، قُتلت فيّ روحُ الجمال ، خِفْتُ من الموتِ الذي كان يراودني بين برهة وأخرى ، استمرّ صهيل الرصاص ثلاثة أيام بلا كَلّلٍ أو ملل ، غابتْ عنّي الأناقة والجمال ، تركتُ مستحضرات التجميل التي كانت تداعب وجنتَيّ ورموش عينَيّ وشفير شفتَيّ ، فقدتْ بشرتي سرّ نظارتها ورونقها ومفاتيح جمالها ، دبّ البؤس واليأس في أوصالي ، بدأ الخوف ينساب إلى جسدي تدريجياً ، كأنه موتٌ بطيء ، كلا بل بدأ الموت يلاعب شفتيَّ. أيُّ رجال هؤلاء نتقدّمُ نحوهم نحن ، يقاتلون كالضواري الهائجة، بات دخولنا العراق واجتياحنا لهم ، أمرا في غاية السذاجة والتفاهة واللامبالاة بأرواح الآخرين ، إلا أن اجتياحنا أمرٌ لابد منه ، كانت ثلاثة أيام عجاف ، ليست كسنّي يوسف ، بل أمرٌّ من ذلك ، كانت هذه الأيام الثلاثة ، بمثابة همٍّ وغمّ لديّ ، وما إن بدأ الجنود يتساقطون في فخّ الأسر تدريجياً ، بل يتسابقون تسابق الماراثونات ،

بسبب تخلّي القيادة المركزية عنهم ، وعدم إرسال العدّة والعدد لهم ، كانت البوابة الأولى للدخول إلى العراق هي مدينة (البصرة) ، التي كانت عصيّة علينا ، طوال الأيام الثلاثة، معاركها عنيفة جداً ، رأيتُ فيها وجهاً جديداً للعنف والقمع والقتل والدمار ، رأيتُ وجهاً قبيحاً للغاية ، كوني لم أعتد على تلك الوجوه الأليمة ، سلاح الجو هو سلاح الإسناد للقطعات البرية ، كان كالنسر الذي يحوم حول فريسته وما إن تسنح له الفرصة حتى ينقض عليها ، انقضاض طير جارح يؤفئف بجناحيه للهيمنة على فريسته واستسلامها له وللأمر الواقع ، فالإسناد الجوي هو لهيمنة القطعات البرية لاحتلال المدن الواحدة تلو الأخرى ، واجهتنا معارك لا توصف بالكلمات بل لها في مخيلتي وصفٌ قد يفوق أن أنطق بها بكلمات بسيطة ، معارك عنيفة في أغلب المدن الجنوبية، بالتحديد في منطقة كانت عصية جداً علينا ، يقاتل أبناؤها أشدّ القتال وبشراهة ، لا يهابون الموت ، لكنّهم يصرّون على الحياة ، إصرار المدافع عن نفسه ، أقوياء ، أشدّاء ، لا تأخذهم لومة لائم ، فعلى الرغم من كثرتنا وقوة سلاحنا إلا أننا لم نستطع السيطرة عليهم ، كلّما حاولنا الإنزال الجوي بواسطة طائراتنا ، تعرّضنا إلى وابلٍ من نار وسيلٍ غزيرٍ من الرصاص ، وهذا ما منعنا من إنزال بعض الجنود هناك.
بحق... كانت مثلثاً للموت ، إلا أن قطعاتنا صمّمت على اجتياح المنطقة ، حتى وإن كلّفها ذلك الكثير ، بتعزيزها لكثافة كبيرة من الجيش والطائرات والمدرّعات وأنواع المركبات الأخرى ، دارت معارك طاحنة بيننا وبين المواطنين الذين اندهشت كثيراً عند رؤيتي إياهم ، فهم خصمٌ ، لم يكونوا من الجيش ، لكنهم عدد هائل من المواطنين ، سقط إثر ذلك الكثير...الكثير ، كنتُ أنا أحد الضحايا الذين أصابتهم رصاصة من الرصاص المتعانق فيما بينه ، وكأنه صراع الرصاص لا صراع الإنسان للإنسان ، سقطتُ على الأرض إثر إصابة لم تكن بالقوية ، إلا أنها خدش أسفل بطني ، كانت بالتحديد تحت سرّتي ، أصاب جنودنا الهلع والذعر والارتباك الواضح على تقاسيم وجوههم

التي تـنـزفُ عرقاً من شدة حرارة الشمس والخوف الذي بات واضحاً على محياهم ، هذا ما حدا بهم لتركي والهرب ثم الانسحاب من دوني ، بقيت في ساحة المعركة أصارع الموت مع نفسي الجميلة التي لا تعرف طعماً للموت، كلّ هذه الصور المأساوية ، ما كنت أعرفها ولا أتوق لرؤيتها، لا أحبها ، لم أتمنَّ أن أصل في يومٍ من الأيام إلى هذه المشاهد القبيحة ، المؤلمة ، البعيدة عن جمال الدنيا والبعيدة كلّ البعد عن الحياة ، تمنّيتُ أيضاً أن أقبِّلَ جبين والدتي ، أمسك بيديها وأتوسّل تحت عرش قدميها ، أبيع الدنيا وما فيها لأظفر بلقاءٍ أخير مع أمي قبل أن أودّع هذه الدنيا ، وما إن خارت الأصوات وهدأت الأنفاس ، وخرست محرّكات مركباتنا عن الحركة ودبّ الموت في محرّكاتها الحديدية ، جاء شخص من أولئك المواطنين الذين يستطلعون المنطقة التي عدّها الطرفان ساحة معركة نتصارع عليها لأننا قوة جبارة قاهرة ملزمه باجتياح المناطق والعمل على إسقاطها بأيدي قطعاتنا الواحدة بعد الأخرى وكونهم قوة صغيرة لا تملك سوى الدفاع عن أرضها وعرضها ونفسها ، فالمنطقة ليست سوى مركبات يعتليها دخان أسود ونارٌ مشتعلة في مؤخّرة تلك العربات العسكرية ، كأنها مؤخّرة امرأة بلهاء ، أما قتلانا فقد وزّعت على تلك الأرض ، هنا وهناك ، فهي المنطقة الأولى التي أرى بها حمرة الدم ، ورائحة اللحم المحترق المنبعث من الجثث المتفحمة ، أما تلك النخلة التي كانت تقفُ بشموخٍ وكبرياء ، فقد عانقها لهيب النار ، عناق الجسد للجسد ، عناق حبيب لحبيبته بعد أفول ضوء القمر ، أقْبَلَ نحو تلك الساحة شخص يمشي على قدميه ، يدفعُ بيديه عربة من الخشب ، يهرول تارة ويمشي تارة أخرى ، يجرُ بيديه تلك العربة بسرعة شديدة ، يتفحّصُ بعينيه الجثث ، وينظرُ بغرابة كبيرة إلى وجوه هذه الجثث ، انساب إلى مسمعيه صوت أنين ، أخذ يتفحّص تلك الجثث بيديه باحثاً عن مصدر الأنين الذي ساقته الريح حيث تستقرّ أذناه على جانبي رأسه الكبير ، ما إن وصل لي حتّى جذبه وجه أنثى ، بيضاء ، شعري...المنسكب على هذه الأرضية ، انسكاب الماء ، كلّوحة تشكيلية تمزج

فيها الألوان ، لون أسود يراق على لون التراب يعطيان لوحة أجمل من كلّ اللوحات ، أناقة أنثى تهدر فوق هذه الرمال ، أما الأسلحة فقد سقطت وحدها ، لا تأبه بتلك الجثث، حتى لا تستطيع الدفاع عنها، كونها جماداً لا تشاء الحركة من دون تدخّل مباشر من هذه الجثث ، التي لا توَدّ الحراك بعد اليوم ، يجمع بعربته الأسلحة المتطايرة في ساحة المعركة ، وما إن جذبه وجهي ، حتى انكبّ عليّ يداعب جسدي بيديه المتخشّبتين ، يفتّش في جيوب ملابسي ، بدلتي العسكرية تزينها بقعةٌ من الدم الذي يسيل من الجرح ببطءٍ وهدوء ، حركة شفتَيَّ هما أساس نقلي بعربته الخشبية من هذه الساحة التي كانت أساس انكسار جيش لا تغيب عنه الشمس، وتنحني إمبراطوريات العالم له إجلالاً وإكبارا ، وقتها كنت أتذمّر ألماً ، حملني بعربته الخشبية التي تسيرُ وهناً على وهن فوق الأرض ، ثمة خوف بدأ يخترق روحي ، يساعدني على اليأس من جبروت الدنيا وزبرجها ، يدفعني بسرعة كبيرة بعربته الخشبية التي تتطاير عجلاتها فوق الأرض بين مدة وأخرى ، يزداد ألمي وهمّي وغمّي ويتّسعُ تذمّري ، أحسست بأنه يريد الهروب بي إلى مكان آخر وهو بهذا العمل يذكّرني بالعم ديفيد إذ يقتادني حيث غرفته العاهرة ، التي يشبعُ بها ملذاته ورغباته، ويستعرض بها عضلات زائدته اللحمية ، من حيث التقلّص والانبساط ، يسرعُ مهرولاً ، فرحاً بغنيمته التي حصل عليها من ساحة المعركة ، ينتقلُ بي من شارعٍ لآخر ، من زقاقٍ إلى زقاق، إلى أن أستوقفه سائق سيارة صغيرة ، بيضاء اللون ، أنظرُ بعينَيّ الشاحبتين المكبوتتين بالقهر والخوف ، وأنا أنحني إلى لحظة أمل أستعطف بها الدنيا ، أرجوها أن تمنحني لحظة وداع أخيرة أُقبلُ بها ما تبقّى من دموع أمي في لحظة وداعها الأخير ، ما كنتُ أفقه ما يقولون ، سوى أن الرجل الأخير أخرج من جيبه أوراقاً نقدية دفعها للرجل الأول ، حَمَلاني ، بيدين متخشبتين وأخريين مرتعشتين ، ووضعاني داخل السيارة ، ثم انطلق بي الرجل الأخير الذي كان يقود السيارة حيث منطقة زراعية كثيفة الخضرة، تمتاز بكثرة نخيلها يتوسّط

هذه الخضرة بيتٌ من الطين ، كبير ، يستمدّ ضوءه من نور الشمس ، لا وجود للكهرباء فيه ، بيوتٌ أنستُ برؤيتها لأول مرة ، أطفأ الرجل محرّك السيارة الذي كان يصدرُ صوتاً مزعجاً ، بينما كنتُ ممتدة برجلّي المقيدتين في مقعدها الخلفي ، ترجّل منها يهرول هرولة خفيفة يمسك بإحدى يديه ثوبه رافعاً طرفه إلى الأعلى يسير بانحناءات فوق هذه الأرض ، يبتعد عن الأشواك التي تعترض طريقه هنا وهناك، وما إن أصبح على مقربةٍ من منـزله حتى صاح بأعلى صوته على زوجته داخل الدار ، انتابني إحساسٌ وشعور بالهدوء والسكينة والطمأنينة ، منذ أن نظرت إلى وجه تلك المرأة ، إذ كنت خائفة بعض الشيء ، كانت تلك المرأة ترتدي ثوباً أسود، على رأسها قطعة قماش سوداء ، يزينُ وجهها وشمٌ جميل على حاجبيها ، وتحت فمها نسقٌ أجمل من ذاك الوشم الأزرق الذي ينسكب بخجلٍ فوق بياض بشرتها وكأنها لوحة من أروع ما تفنن به الفنان (سلفادور دالي) من رسمٍ تشكيلي يمزج بها الألوان بأنامله الخفيفة يبدع من حيث منابع الإبداع ، ينهل من حيث تنهل الألوان سر رونقها وجمالها، وجهها المدور ، ملامحها الجميلة ، قوية ، أصغر منه سناً ، بحدود الأربع والعشرين عاماً، حملتني على أذرعها بقوة رجل ، لا بوحي أنثى ، وقتها ذكرتني بـ (لورانس) الذي كان يحملني عندما أصل وإياه إلى شبق الحياة ، حيث صخبها هناك يراق على قارعة الطريق، يراق في حانة العم ديفيد ، يراق تحت شجرة تستمد ضوءها من عتمة الظلام الحالك ، عشتُ بضع دقائق ، أحلاماً وردية بين ذراعيها ، أراقب عن كثب ومن خلالها عضلات (لورانس) التي كانت تمرّغني بين الحين والآخر ، مرة يميناً وأخرى شمالاً، كان يتفنّن عند حمله إياي ، كعازفٍ يتفنّن العزف على عوده، أو كجارية جميلة تمسك ببراعة كبيرة قيثارتها لتترجم على أوتاره الوسطى ألحاناً شجية يطرب لها الجميع ويستأنسُ بها الأعمى والبصير ، وترى الوحوش سكارى بحضرتها وماهم بسكارى ، لكن لحن الملكة جميل ، أدخلتني باحة الدار ، أجلستني على حصيرٍ قديم أو لربما قطعة قماش بالية تماماً ، سرقت حرارة الشمس سرّ

جمال ذاك البساط الرثّ البسيط ، مخدة من القماش المتهالك ، لم تكن من القطن أو الأسفنج ، لكن كانت مجموعة من القماش رتّبت بشكلّ عشوائي ، معقودة من إحدى طرفيها ، استلقيت على ظهري بعد أن وضعتني بلطفٍ كبير على الأرض ، بدأت أتأمل الحزم الضوئية المنبعثة من ضوء الشمس والتي تمرّ من خلال السقف الذي أستظلّ به وأنا مستلقية على ظهري ، تلك الحزم التي تحاول إخفات النور في عينَيَّ ، فالسقفُ ليس بالمستوى المطلوب ، ما هو إلا أعمدةٌ من الخشب تغطّيها بعضٌ من سعفات النخيل وأعواد من القصب التي بدورها تغطّيها كتلٌ من الطينِ اليابس الذي يتحوّل نهاية المطاف إلى كومةٍ من الأحجار الطينية التي لا تقاوم أبسط الأعاصير كالتي تجتاح مدننا المطلّةً على البحار والمحيطات ، كانت باحة الدار واسعة جداً وما يزين تلك الباحة بعض الأدغال الخضر التي تجتمع حول بركة واسعة تستمدّ ماءها من أحد الأنهر الصغيرة ، المنظر جميل ، إلا أن الخوف مازال يساورني بين فترة وأخرى ، خرجت من إحدى الغرف امرأة تكبر تلك الجميلة سناً ، وعلمت فيما بعد أن هذه المرأة الكبيرة في السن هي أمُ تلك البنت الجميلة التي حملتني إلى هذه البقعة من الأرض إذ يستقرّ عليها ذاك المنـزل الهرَم ، كانت البنت تميل من حيث مظهرها الخارجي وأوصافها الجسمية والجسدية إلى أمها ، وكان والدها شيخاً وقوراً تزينهُ لحيةٌ كثة بيضاء ، وله الفضل في انتشالي وإنقاذي من صاحب اليدين الخشبيتين ، وهو من أوصلني حيث هذا المكان الواسع الذي تفوح منه رائحة الخضرة والحِناء ، أشتدّ النـزف من حيث دفق الدم شيئاً فشيئاً وبدأت أشعر بحرقة كبيرة تسَاورني تحوم حول الجرح، خرج ذلك الرجل خارج الدار إثر اشتداد الألم ، وزيادة النـزف ، سعت إبنتهُ على رفع القميص لترى الجرح وتمسح بقايا كريات الدم الحمر المتجمهرة والمجتمعة فوق أخدود الجرح لإزالته ببطء ، إلا أنها كلّما حاولت إزاحة الطبقة المنجمدة ، أسرع الدم للتدفّق الشديد ، كانت حيثما تمرر يدها أشعر وكأن يد لورانس تطوقني بحنانها وتغرقني بعطفها، وقتها انتابني شعورٌ بالراحة الكبيرة

واللامتناهية، بعد برهة ليست بالكبيرة عاد الأب مع شخص آخر ، يرتدي نظارة ويحمل بيدهِ حقيبة سوداء ، كان طبيباً معالجاً ، فقد أحضره الرجل لمعالجة الجرح النازف ، كانت ابنة الرجل قد غطّتني بشرشفٍ رثّ ، قديم ، بعد أن حاول بكلّ ما أوتي من قوة أن يضع حقيبتَهُ على الأرض ، وكأنه انبهر لرؤيتي ، بدأ يرفع الغطاء تدريجياً بعد أن تحدث معه الأب الذي ترك المكان إثر ذلك ، ليخلو بي المعالج الطبي ، رفع القميص من الأسفل نحو الأعلى وفكّ الحزام الذي كان يلفّ خصري ، إذ كان الجرح أسفل منطقة السرة ، كان الجلد أبيض ، تطغى عليه بعض الندب الحمر من جراء الجرح ، لاحظت ثمة خجلاً دبّ في تفاصيل وجهه ، واحمرت وجنتاه ، وبدأ جبينه يتصبّب عرقاً، أحسست أن يده ترتجف كلّما حاول أن يلمس الجرح أو أن يمرر يده فوق الأخدود الذي ينبجس من ثناياه نهر ، لدفقِ ماءٍ أحمر أو أن يطهّر ما يدور حول الجرح ، فعلى الرغم من ألمي، إلا أنني كنت أتلذّذ لهذا الرجل الخجول ، الذي على ما أعتقد انه لم يمسَّ امرأة قطّ.
لكني رأيت بجسمي وجسدي المسجّى على قارعة الألم وحشاً كاسرا ترتعد فرائص ذاك الرجل المعالج مني.
أيّ رجال هؤلاء ... يخجلون من امرأة، لا يستطيب لهم النظر حيث يكمن سرّ محاسنها ومستودع أسرارها وغلو ثمنها ولا يتجاوز حجمه حجم الكفّ.
بعد تطهير الجرح وتضميده قام بإعادة الغطاء مرة أخرى ، كان يمشي على مهلٍ بعد أن خارت كلُّ قواه ، ولم يستطع معصماه حمل الحقيبة ، ثم دخلت بعد ذلك كلّ من الأم وبنتها عليّ لتتفحّصا تضميد الجرح ، بعد ذلك قامتا باستبدال ملابسي بملابس أخر ، كان ثوباً ريفياً طويلاً لم أعتد لبسه ، إلا أن ألوانه كانت جميلة ورائعة ، وقد ربط شعري بقطعة قماشٍ سوداء يقال لها: (الشال) تعمل على حجب شعر الرأس واستتاره خلفها ، ليت لورانس يراني على هذه الهيئة، لسقط إلى الأرض ينزف ضحكاً ، كونه معتادا أن يراني بالملبس القصير ، والشعر الجميل.

بدأ المساء بالاستفحال تدريجياً و الظلام يخيمُ فوق المكان ، ينشر بذراعيه السوداوين ظلامه الحالك ، فالمكان يستمدّ نوره ووهج ألقه من أحد الفوانيس المعلّقة أعلى السقف ، الذي يتأرجح مع هبوب الريح الخفيفة التي تظهر بتيّارها المتناوب بين الفينة والأخرى ، وكأن هذه الريح تداعبه بين وهلة وأخرى ، أو كأنما يحرّكه عفريتٌ بين لحظة وأخرى ، أو كأمٍّ تهزّ مهد طفلها ، كانت تسهر على راحتي طوال الليل البنت الجميلة التي لم أتعرّف بعد على اسمها ، كانت تتحدّثُ إليّ ، لكني لا أعرف ما تقول لي ، لأني لا أفقه قولها ، ولا أعلم عمّ تتحدث ، لكنها كانت تضع يدها على جبيني وعرفت من خلال تصرّفها هذا إنها تحاول معرفة درجة حرارتي ، كانت كلّما ارتفعت حرارتي ، تمتزج تقاسيم وجهها بلحظة أسى واشمئزاز ، بقيتْ على جلوسها إلى جواري حيث انتصاف الليل وزواله تدريجياً ، بعد الإعياء الذي عانته إثر جلوسها بالقرب مني ، ما أفقدها توازنها ، لتلقي بجسمها عليّ ، صحتْ على أثرها من إغفاءة بسيطة ، كانت تسدّ بها رمقها من النوم ، توجهت إلى جبيني لتضع يدها عليها ، لترى ما آلت إليه درجة حرارتي ، رأيت تقاسيم وجهها اختلفت اختلافاً جذرياً ، بانت على محياها ابتسامة عريضة امتزجت ببقايا النعاس المتراكم فوق عينيها وهو دليل على أن درجة حرارتي آلت إلى الهبوط التدريجي وبصورة تنازلية ، ومع بزوغ فجر جديد وصباح جميل، صحوت من نومي لأرى أن عافيتي أخذت بالتحسّن ، وعلى مائدة الإفطار البسيطة ، وجدت نفسي أمام ألذّ وأشهى المأكولات ، وقبل انتصاف النهار عاد الرجل المعالج للإطلالة على الجرح وإعادة تضميده مرة أخرى ، إلا أنه عاد ليراني بحلة جديدة وملبس آخر غير ملابسي العسكرية التي تشعّ منها رائحة العفن وبقع الدماء الجافة ، التي كنت أرتديها البارحة ، خرجت البنت من الغرفة التي كنّا ننام بها سويّة ، بعد أن أعدّت لي فراشاً ، وغطّتني بغطاءٍ قد يكون أفضل من الغطاء الذي غُطّيتُ به الليلة الفائتة ، ليدخل المعالج الحجرة ويراني على تلك الهيئة ، احمرّ وجهه كعادته ، وبدأت حبيبات العرق تنبجس من ثنايا

جبهته كالسيل الجارف أو كالمطر الذي يتدفّق من أعلى سحابة في السماء ، دنا مني دنوّ الخجول ، واقترب أكثر عندما وضع حقيبته على الأرض ، وبدأت أصابعه تلامس قدمَيَّ ، أحببت أن أخفّف من معاناته التي يعانيها عند حضوره لإعادة تضميد الجرح ، إلا أن معاناته هذا اليوم كانت أكبر بكثير من البارحة ، فالبارحة لم يرفع سوى الطرف الأسفل من القميص وقليلاً من الحزام الذي يربط البنطال ، إلا أن اليوم ليس أمامه سوى طريق واحد ، هو أن يرفع الثوب من الأسفل، وهذا ما أعتقد أنّه لا يحمد عقباه ، أيضاً وما كان يخشاه ، لذا بادرته أنا بسحب الثوب نحو الأعلى ، لأكشف له عن الجرح ولأكون أمامه كالجثة الهامدة التي لاتحرك ساكناً ، أخذ يتفحّصني بعينيه المتفحّمتين من أخمص قدمَيّ وصولاً إلى الأعلى حيث شعر رأسي ، غارت عيناه ، حيث تقبعان في محجريهما ، وتوقّفت عن الحراك لوهلة ، لتعاود التفحّص مرة أخرى ، بينما ما انفكّ ريقهُ عن الذهاب والإياب ، قام بإزالة الضماد القديم واستبداله بآخر جديد ، لاحظت ثمة تغيّرات فسلجية وأخرى عضوية وبالتحديد عندما نظر إلى عاصمة جسدي حيث مركز اشتهائي ، سحب الثوب نحو الأسفل واضعاً يده فوق تلك العاصمة الروحية ، لأرى انتصاب شعر رأسه ، ولربّما قد توقّف قلبه عن الحراك ، كنت أعشق هذه الانفعالات إلى حدٍّ كبير ، كوني لم أر شاباً كهذا ، تتقطّعُ به الأوصال ، ينقلبُ رأساً على عقب عند رؤيتي ، لكنّي أيقنت أنه لم يرَ في حياته امرأة قطّ ، ولم يتعامل معها كما تعامل معي ، كنت أتلذّذ بل وتروق لي كلّ تلك الانفعالات والتصرّفات ؛ لأنها تجعلني في قمّة الاشتهاء ، فأحببت أن أتعرّف منه على بعض الأشياء ، ربّما أجد عنده بعض الاستفسارات والحلول لبعض الأسئلة والتعرّف عليه ، أضف إلى ذلك التعرّف على أصحاب هذا المنـزل ، لمناداتهم بأسمائهم بدلاً من الإشارات وبعض الكلمات التي لا يفهمها كلانا نحن الاثنان وغالباً ما تنتهي بابتسامة بسيطة ، إلا أنه لم يعرف سوى بعض الكلمات الإنكلّيزية والتفوّه ببعض الكلمات والجمل غير المترابطة ، لكنها أسعفتني

بعض الشيء ، كأسماء البنت وأمها ووالدها الرجل العجوز الذي قادني حيث هذا المنـزل ، إلا أني لم أعرف غير ذلك وما أطمح وأصبو الوصول إليه كان غير ذلك، كان اسمُ البنت (حنان) ، كانت تحمل من العطف والحنان ما لا يطاق، أمها تدعى (رقية) أما أبوها فكان اسمه (الحاج أمين) وذاك المضمّد الخجول كان يدعى (باسم) إلا أن ثغره لم يكن باسماً ، فكانت ابتسامته يمزّقها ويبدّدُ جمالها الخجل كلّما جاء لتضميد جرحي، سألته وقتها أيضاً عن اسم المنطقة التي نحن بها الآن فقال لي إن اسمها (سوق الشيوخ) ، كنت أحسبه سوقاً للتبضّع وشراء بعض الحاجيات ، إلا أني علمتُ فيما بعد أنها تسمية أطلقها ساكنوها على هذه المنطقة ليست إلا ، وهذه المنطقة تبعد مسافة ليست ببعيدة جداً عن مدينة (الناصرية) المعروفة ابان الاحتلال البريطاني على العراق ، حيث أرعبت إحدى الأشجار النابتة في هذه المدينة بعضاً من جنود الاحتلال البريطاني في ذلك العهد ، وهو ما جنيته من معلومات جمة وكثيرة عنها ، فكان أغلب الجنود الذين يستظلّون بظلال تلك الشجرة ، أو يحاول الجلوس ، أو حتّى مسّها أو الاتّكاء عليها فإنّه يقتل بلا أدنى مستوى للشكّ ، كانت مصدر قلق وإزعاج كبير للجنود البريطانيين ، وهذا ما حدا بهم أن يطلقوا على الشجرة اسم (الشجرة الخبيثة) أو (الشجرة الملعونة) مما انسحبت هذه التسمية حتّى هذا اليوم ، وبعد خروج المعالج وتلكئه معي في إدارة الحديث الذي دار بيننا ، إلا إني فرحت بعض الشيء ، لأني وجدت شخصاً يتحدّث معي ولو بالنـزر اليسير ، والأخصّ في لغتي الإنكلّيزية ، بعد أن أوصاهم ببعض التمارين الحركية لاسترداد قسم من عافيتي التي فقدتها بوجود الجرح الذي بدأ بالتحسّن التدريجي شيئاً فشيئاً.

عند المساء، الشمس تبدأ بالعزوف والاستتار خلف السواتر الإلهية والكواليس الخفية ، لتدور في فلكٍ مشحون وتتوارى عن الأنظار بعيداً ، مدبرة ، لحين بزوغ فجر جديد يحملً معه ما يخفيه القدر ، يقوم القمر بسدّ النقص الحاصل في هذا الكون وإشغال الفجوة التي حصلت بعد مغيب الشمس وذوبانها في

بحيرة حمراء وقت المغرب وكأنها تسبح في بركة من الدم ، ليلة مقمرة ، تزيّن السماء نجوم كلآلئ بيضاء أو ماسات تلتمع بين الفينة والفينة ، ظلمة الليل تتبدّد وتنسحب تدريجياً كلّما توهّجت السماء بقمرها المضيء وحرّاسه من النجوم اللامعة ، (هنان) الكلّمة الأولى التي أطلقتها بوجه تلك البنت ، وذاك ما أوسعها ضحكاً إلى أن سقطت أرضاً ، وباتت تكرّر بين شفتيها الجميلتين تلك الكلمات التي أطلقتها ، أنا... على سجيتي الهرمة والخاوية (هنان).....
(هنان) وتقهقهُ عالياً ، حيث تستقبل بوجهها المفعم بالحياة نور القمر ولمعان النجوم اللذين يضفيان على وجهها لوناً أبيض ، فقد وجدتُ صعوبة كبيرة بلفظ اسمها ، إلا اني أدخلت السرور على قلب تلك الفتاة الرائعة ، التي كنتُ أرى بوجهها وشماً تشكيلياً وملامح تدلّ على البراءة وطيب القلب ، بتُّ ليلة أفكر بذاك المعالج الذي يتصبّبُ عرقاً ويزداد خجلاً ، وتكتمل أناقته بوجنتيه الحمراوين المفعمتين بالخجل والفرح في آن واحد ، كلّما حاول الاقتراب مني أو النظر إلى بعض الملامح الخفية من جسدي والتي تستتر بستارٍ من القماش، فكرتُ في البحث عن الأسباب التي تساورني بين ماهية (لورانس) وماهية (باسم) الخجول ، لأن (لورانس) يمتلك من الشجاعة الكافية في أن يمتلك كلّ شيء في جسدي من هامتي حتّى أخمص قدمي ، كنت لا أشعر بنشوة تنساب إلى جسدي أو تحاول أن تحرك مشاعري ، لا أتلذّذُ عندما يحاول (لورانس) الاقتراب والدنوّ مني ، مثلما أشعر بتلك النشوة التي تسري في عروقي مسرى الدم في الشرايين ، مسرى الهواء العذب حيث الرئتين تختبئان خلف قفص ليس من الحديد بل قفص أتقن صنعه الربّ ، كلّما حاول (باسم) الدنوّ والاقتراب مني تنساب إلى جسدي قشعريرة تدكّ مضجعي ويزداد ألقي وزهوي وتعتليني نشوة فوق النشوة الأولى ، إذ كان يعاني تغيرات فسلجية كبيرة في جسده الخارجي وفي كلّ أحشائه الداخلية ، كان الرجل العجوز (الحاج أمين) يسأل ابنته عني ويتابع أغلب أخباري من

خلالها ، فهو لا يقترب مني أو حتى يحاول النظر إليّ ، بل كان يغضّ بصره ، وإن شاء أن يراني، فيراني من بعيد.
وفي صبيحة اليوم التالي ، وبعد مائدة الإفطار المتواضعة التي كانت تجهدُ بها العائلة نفسها ، كونها عائلة فقيرة ، لا تملك من مقوّمات العيش سوى دقائق الأشياء ، كان الموعد يتجدّد مع المعالج (باسم) ، وكعادته التي اعتاد بها رؤيتي ، أضطجع على فراشي ليعيد ترتيب الضماد لي ، إلا أن ثمة اختلافاً يميّزه عن باقي الأيام ، ما يزيّن وجهه ابتسامته العريضة التي تحوّله إلى إنسان لطيف ، فتلك الابتسامة كان دائماً ما يستقبلني بها عند دخوله عليَّ في الغرفة التي أرقد بها مع جدراني الأربعة الصامتة التي لو أُذِن لها بالكلام لقالت الكثير الكثير ، طرح حقيبته أرضاً بكلّ ثقة واتّزان ، لم يتصبب عرقاً ، إلا أن حمرة خفيفة اعتلته ميزت خديه ، لكنه حافظ على أن يبقى باتّزانه وسيطرته على جسدي بكلّ ثقته ، امتازت جرأته برفع غطائي الذي يسترني حيث أتمدّد على ذاك الفرش البالي ، وامتازت أكبر عندما بدأ بنسف ثوبي تدريجياً ، أشبه بعريس ينسف قطعة القماش الخفيفة التي تستّر خلفها وجهُ جميل لامرأة أجمل ، بكلّتا يديه ، لِيودعَ وجنتيها قبلة تكون بداية عهدٍ جديد لامتلاكه قلبها وناصية جسدها التي يمرغها بين الحين والآخر بجشوبة جسده ، للوهلة الأولى يقشعرّ بدني وتنتابني نوبة بأني أمام رجل أروع بل أدهى من (لورانس) الذي ما شعرت في يومٍ من الأيام التي قضيتها معه بأنني كنت أعيش فعلاً في هذه الدنيا ، كان (باسم) أشبه بمروّضٍ للأسود التي لا يستطيع أو يقدر أيّ أحد أن يروّضها بسهولة ويسر ، بدأت عيناه بتفحّص كلّ شيء في جسدي ، وكأنه يبحث عن علامة دالّة أو نقطة يستدلّ بها إذا أضاع الطريق في بحثه عما يريد الوصول إليه أو تحقيق ما يصبو إليه ، وأخذت يداه المرتعشتان من شدّة الارتباك ، الدخول إلى أمكنة ما اعتادت الدخول إليها أو الوقوف والوثوب أمامها ، فقد باتت يده تعاود عداً عكسياً مرة أخرى وكأنها اعتادت الرواح والمجيء ، كان مرور يده اليمنى

خفيفاً بعض الشيء ، لكنه بدأ بالضغط بشدّة خفيفة في مكانٍ ما من عاصمة جسدي ومركز انتعاشي وقعر نشوتي ، فيداهُ تبعثر أشيائي ، يحيلني إلى زوايا منفرجة وحادة ويلفُّ ساقي بساقي ، أعتقد أن سكوتي وإمعاني النظر في عينيه الملتمعتين اللتين تشعّان بريقاً وبعض تفاصيل وجهه ، هو ما زاده إصراراً على ان يمتلك تلك الشجاعة التي كنتُ أرقبها منذ الوهلة الأولى ، التي كان يخبئها خلف خجله المسكين ، كان لا يتظاهر الخجل بل يعيش الخجل الحقيقي ، أحسستُ بإحساسٍ غريب من خلال إلحاحه وتصرّفاته تلك ، كما اعتقد انه لو اختلى بي في مكانٍ ما ، لا تطأه العيون ، ولا يصل إليه ثالث اثنين ، لطلب مني شيئاً أكبر من هذا كلّه ، إلا أنه استبدل الضماد القديم بآخر جديد ، ومارس طقوس سحب الثوب إلى أسفل ولكن ببطء شديد ، ورمق ما تبقّى بنظرة أخيرة ، بالكاد لم تكن تلك النظرة هي الأخيرة ، إلا أنها ثورة استبدادية لتعوّض عمّا فاتها في الأيام الماضية ، لكن ما زاد استغرابي ولفت انتباهي ونظري... أني لم أسمع طوال تلك الليالي والأيام التي قضيتها هنا قرقعةً وأصواتاً لإطلاقات نارية، كنت أعتقد أن قواتنا العسكرية المدجّجة بالأسلحة الفتاكة ، قد انسحبت من هذا المكان ، ولّت هاربة إلى مكان آمن لها حيث لا تجد من يقاومها أو يحاول الاعتداء والانقضاض عليها، بعد دقائق لم تكن بالقليلة وليست بالكثيرة التي تشعر من خلالها بالملل ، سمعت أصواتاً كزئير الأسد لسرفات الدبابات ، ورعيداً للمدرعات ، كرعيد السماء إذ اشتدّت سواداً بظلمتها المحمّلة بالمطر الغزيز ، وفحيح الهمرات، كفحيح الأفاعي إذ تملّكها الغضب ، هذه الأصوات الممتزجة فيما بينها ، تنبئ بوقوع حدث كبير ، أيقنت عندها بوجود قواتنا ودخولها حيث هذه البقعة من الأرض ، لأني اعتدت أن أسمع هذه الموسيقى العسكرية التي تشمئزّ منها النفوس والأرواح بدلاً من الموسيقى الصاخبة التي كانت تدكّ أرجاء حانة العم (ديفيد) ، إنها سمفونية عسكرية عازفوها هم من الجند والعسكر وراقصوها جثث الأبرياء التي تتهاوى وتتساقط مع كلّ لحن حزين تصدره تلك الأسلحة الفتاكة التي تجهشُ

بالصراخ والعويل عندما يبدأ العازف بالعزف على تلك الأسلحة التي تطربُ لها الجثث وترقص فرحاً مهلّلة بالموت والفناء.
أيّ وقاحة ، وأيّ حظٌ أمتلكه أنا ، لقد اعتدت تلك المناظر الموحشة والسير فوق أكوام الجثث ، أيّ امرأة أنا ، تلك التي تتغزّل بالموت والجثث ، وتترك الحياة والحبّ والأمل ، تقدّم الحاج أمين وخلفه بعض الجنود من قواتنا الذين يسيرون خلفه وكأنه قائد عسكري يسير أمامهم بكلّ هيبة ووقار يتقن بتلك المشية التي يتمايل بها أشبه بسعفة تتراقص في مهبّ الريح، وعلمت من أصدقائي الجنود أن الحاج أمين هو من قادهم حيث المنـزل الذي يقطن وسط بساتين النخيل وأبلغهم عن وجودي داخله بعد أن تماثلت تقريباً للشفاء البطيء ، نُقلْتُ بواسطة المركبات العسكرية التي أسعفتني على وجه السرعة ، ودّعت إثر ذلك عائلة الحاج أمين ، لكنه كان توديعاً مؤقتاً ، خرجت بثوبي الطويل وشالي الجميل ، وفي أحد المقرات العسكرية التي تتجحفل بها قواتنا ، تم إجراء علاج سريع وفوري بالإضافة إلى استبدال الضماد القديم بآخر جديد ، إلا أن الأنامل التي تلامسني وتحاول بملامستها مداعبة الجرح ليست كأنامل المعالج (باسم) التي كنت أتلذّذ بمرورها فوق جسدي ، فبادرته مسرعة بالسؤال الذي طالما تكرّر طوال الثلاثة أيام الماضية والذي لم أجد ما يفسّر لي ذلك ، فهذه المنطقة لم نستطع اجتيازها بسهولة ويسر وأنا كنت أحد الضحايا المصابة بجروح من بين الجثث التي سقطت هاوية إلى الأرض بلا أرواح وما آلت إليه تلك المعارك العنيفة التي لم نحصل فيها على موطئ قدم ، وعندما لم أسمع صوتاً لإطلاق الرصاص ودويّ الإنفجارات ، فكيف لقواتنا اليوم تجوب الشوارع ومن دون أيّ خطر أو مقاومة ، فأخبرني صديقي المعالج (جون) قصّة طريفة وغريبة جداً وذات مغزى كبير حيث قال لي: لقد فوجئنا بعد تلك المعارك الطاحنة ، التي فقدنا بها الكثير من الجنود الأكفاء الذين نعتمد عليهم في حروبنا والمدرّبين أحسن تدريب ، أننا نحارب جيشاً قوياً كما كنا نحسبه أو نعدّ العدة والعدد والتهيؤ له ، كانوا مجموعة من الناس والشبان هبوا لمقاتلة

ومحاربة قواتنا ، أي مقاومتها وعدم السماح لقواتنا بالدخول إلى أراضيهم ، وهذا ما سبّب لنا ذعراً كبيراً ، كوننا نقاتل أناساً لا يخافون الموت ولا يحبون الرجوع أو الانسحاب من سوح القتال إلا بفرارنا وهروبنا من ساحة المعركة.
- إذن ما الذي حصل؟
- في اليوم التالي ، بعد أن تعرّضنا لتلك الهزيمة البغيظة من البساتين التي تفوح منها رائحة الرصاص وكتل النيران ، أعددنا كلّ ما يلزم إعداده للقضاء على هؤلاء الذين يتخفّون بظهر البساتين وخلفها كأنّهم أشباح لا نرى وجوههم لكننا نرى تدفّق النيران بغزارة صوبنا ، سارعت قواتنا للدخول على شكلّ جماعات ليصعب القضاء عليها ، إلا إننا لم نجد أية مقاومة تذكر، وهذا ما زاد من تخوّفنا وحسبنا انه كمين لنا للانقضاض علينا ، عند التوغّل البطيء أكثر وأكثر والمشوب بحذر شديد، إلا إن ما رأيناه كان خلاف كلّ هذه التوقّعات ، كانت وجوه الناس مألوفة لم تكن تحملُ بين طياتها حقداً ، ووجوه تطرق محياها ابتسامة خفيفة ، ووجوه أخرى تنظر إلينا بشغف وإعجاب، حيث تعمّقنا بالدخول إلى أعماق المنطقة شيئاً فشيئاً ، لم نستطع إسقاط تلك المناطق ولكن دخلنا بمحض إرادتهم ومن دون مقاومة ، إلا أنّ اتّصالاً هاتفياً ورد إلينا أثناء تجوالنا والتوغّل بمناطقهم أبلغنا بالانسحاب والرجوع فوراً حيث مكان تجحفلنا.
- أ ولم تتعرّفوا عن السبب المفاجئ من وراء عدم مقاومتهم لكم ، أو ما هي الأسباب من وراء هذا التغيير؟
- بلا... لقد عرفنا كلّ شيء ، حتّى الأسباب التي من ورائها لم نواجه منهم أية مقاومة كما واجهناها في الأيام الماضية.
- إذن... فاترك كلّ الأحداث التي واجهتموها ، وأبلغني عن الأسباب التي من خلالها أصبحتم أسوداً ضارية تجوب الغابة من دون منازع لها ، بعد أن كنتم كالفئران التي تخاف القطط وتهرب منها في أي وقت تراها.

- بعد أن أيقنّا بأنهم لن يقاوموا قواتنا ، ولن تصدر منهم أية مشكلّة تهدّد أمننا وأرواحنا ، أخذنا الاقتراب منهم ومحادثتهم من خلال مترجمنا العربي الجنسية ، فَهِمَ منهم أنهم أوقفوا القتال استجابة لفتوى أصدرها رجلٌ يقالُ له (مَرْجِع).
- تمهّل يا (جون) فإني لا أعرف ما تقصد بـ(الفتوى) حتى تعود مرة أخرى ، لتعبّر عن مصطلح آخر لتقول لي (مَرْجِع).
- يا صديقتي... إن (الفتوى) هي عبارة عن ورقة تدوّن بها بعض الكلمات والتوجيهات يكتبها الـ (مَرْجِع) إلى أتباعه ليسيروا على وفق ما يراه هو ، لا ما يرونه هم ، ووفق ما تقضيه المصلحة العليا التي تصبّ في جانبهم ، يتمسّكون بها تمسّك المتشبّث بالحياة.
- إذن فالـ (مَرْجِع) هو شخص.
- نعم إنّه شخص ، لكنّه يمتلك من الهيبة والوقار ما لا يمتلكه أيّ شخص وهو بمثابة الأب الروحيّ لهم ، وحوزتهم التي يقبع بها الـ (مَرْجِع) ، كالكنيسة التي يقبع بها البابا ، القدّيس والأب الروحي لنا.
- إلا أنهم يتهافتون لإرضائه ، وتحقيق رغباته ولو كلّفهم ذلك حياتهم.
- كيف ذلك؟
- من خلال تنفيذهم لتعاليمه ، وفق أدقّ التفاصيل.
- إذن فهم يتقاضون راتباً شهرياً كبيراً منه ، وهذا ما يحدو بهم لأن يتهافتوا ويضحّوا بأنفسهم ، كما نحن نتقاضى راتباً شهرياً كبيراً ، وهو أحد أهمّ الأسباب التي دفعتنا للمجيء والمخاطرة بأنفسنا.
- كلا يا (جِنيتْ) ، إنّهم لا يتقاضون أيّ راتب.
- إذن لِمَ كلّ هذا وتلك الخسائر بالأرواح؟
- إنهم يدركون ويعتقدون بأنّ طاعته واجبة ، وأن المخالفة وعدم العمل بالفتوى الصادرة منه تشكّك في صدق نواياهم الدينية ، وبالتالي يشعرون بالذنب تجاه الربّ لأنه هو المرشد الوحيد ، والهادي إلى طريق الربّ.

- إذن مقاومتهم لنا جاءت بفتوى منه ، وترك مقاتلتنا ومقاومتنا جاءت أيضاً بفتوى صادرة منه ، أليس كذلك؟
- بلا.
- إذن فهو يسير وفق نظريات خاطئة ، لا تمتلك ولا تتكّئ على أسس ومقومات.
- كيف؟
- علماء المنطق يدركون تماماً أنّ الضدّين لا يجتمعان في آن واحد ، هل لك أن تفسّر لي إصدار كتابين ، الكتاب الأوّل يحثّ على مقاومة قواتنا ، وبعد أيام يسارع بإصدار كتاب ثانٍ يحثّهم فيه على ترك القتال وعدم المقاومة.
- كلا ، فهو لم يصدر كتاباً ، يحثّ فيه أتباعه على مقاومتنا وقتالنا أو حتّى التعرّض لنا.
- لكن كيف؟
- ان الفتوى الأولى ، التي كان يظنّ أتباعه أنها تصدر منه ، كانت مزوّرة تحمل ختمه وتوقيعه ، فقد قامت الحكومة بإصدارها لإيهام الناس وتضليلهم ، وحثّهم على مقاتلتنا ومقاومتنا وبالتالي الوصول إلى مآربها ، فالحكومة باتت تفقد سيطرتها على المناطق المتمركزة فيها ، وبدأ يدبُّ الضعف فيها ، وبما أنّ الشعب مضطهد من قبلها ، فقد استعانت بعض المناطق على فتح معابرها أمام قواتنا للدخول بسهولة ويسر ، باستثناء هذه المنطقة الوحيدة التي لم تسمح لقواتنا بالعبور من خلال أراضيهم واجتيازها من دون خسائر ، فقد دأبت الحكومة العراقية لافتعال حكاية كهذه لتحريض الشعب على مقاتلة قواتنا العسكرية بينما تقف هي موقف المتفرّج ، لئلا تخسر شيئاً ، فالشعب ذاته ونفسه الذي قادته الحكومة في معركة طاحنة طوال الثماني سنوات مع الحكومة الإيرانية ، التي جعلت من أبناء هذه المنطقة الجنوبية الساذجة التي لا تفقه مصلحتها حطباً لمعارك لم تجنِ منها أي شيء ولم تستفد منها سوى القضاء على شبانها ، وإعمار المقابر التي لم تسع لها حتى بقع الأرض ، وكان للحكومة المصلحة في ذلك ، فهذه المناطق الجنوبية كانت تعارض نظام

الحكم وجبروته وتسلّطه على رقابهم ، وكانت من أشدّ المعارضين له ، فحقد السلطة على أبناء هذه المناطق مازال حتّى هذا اليوم ، فسارعت بإصدار هذه الفتوى لتضرب عصفورين بحجرٍ واحد ، هو ضرب قواتنا مع أبناء هذه المنطقة ، وان الخسائر الهاوية بين الطرفين ، هي من دواعي سرور السلطة ، لكنّهم علموا فيما بعد أن هذه الفتوى لم تصدر من هذا الـ (مَرْجِع) ، وبعد التحقّق من صحّة تلك المعلومات ، سارعوا إلى ترك سوح الوغى وبالتالي تمكنّا من دخول هذه المناطق ، على الرغم من أنها أسّست لدينا رعباً وذعراً كبيراً وكانت بحقّ مثلّثاً للموت ، لم نستطع إنزال قواتنا جوياً فيها، ولم نتمكّن من اجتياحها بالسلاح البّريّ.

- إذن هذا هو السبب من وراء دخولكم وتوغّلكم هنا؟

- نعم ، هذا هو السبب.

بقيت تحت العلاج والمراقبة مدّة أسبوع واحد ، على إثر ذلك تماثلت للشفاء التامّ ، بعدها قرّرت أن أذهب لزيارة الحاج أمين وعائلته في منـزله ، لأرُدّ له قسطاً من الجميل الذي أغدقني إياه أثناء مكوثي عندهم.

في الطريق قبيل الوصول إلى داره ، رمقته من بعيد جالساً على أعتاب داره ، وجهه إلى الأرض ، ممسكاً بيده عوداً من الخشب ، يقلّب به حبات الرمل يبعثرها ويعود مرة أخرى ينشرها ، كالعرّاف الذي يبحث في حبّات الرمل عن أسرارٍ إلهية غيبية يطلعُ بها الآخرين على مستقبلهم الآتي ، وكأنه يكلّم تلك الحبات أو يمازحها ، ما إن رآني حتى أنتفض ونهض على ساقيه الخاويتين ، وتهلّل وجهه فرحاً ، وارتسمت على محياه ثمة ابتسامة تشدّ فمه نحو الأعلى ، تزين وجهه الشاحب ولحيته الكثة البيضاء التي تضفي على وجهه شعاعاً يسطع النور من ثناياه ، كبريق لامع ، رحّب بي ترحيب صديق مشتاق ، دخلت الدار لأرى صديقتي (حنان) وما كادت توصف فرحتها عند رؤيتها إياي وكأني فرد من أفراد هذه العائلة الطيبة ، تشابكنا وتجاذبنا ، وقبلت إحدانا الأخرى تعبيراً عن الفرحة التي غمرتنا كلتينا نحن الاثنتين ، أمعنت (حنان)

النظر جيداً بي ، فقد خرجت منهم آخر مرة بالثوب والشال المنقوش عليهما بألوان زاهية وجميلة ، وها قد عدت لهم بهذه الملابس العسكرية الموسومة بالتجهيزات كافة ، ابتداءً بحملي السلاح والسكّين التي تطوّق فخذي كما يطوّق الكلّب بطوقٍ ويقاد إلى حيث يشاء صاحبه أن يأخذه ، القطعة الحديدية التي تغطّي ذاك الصدر الشامخ المختفي خلفها ، كطفل يختبئ خوفاً تحت أثواب أمه أو كجبال عاتية متشبّثة ومتمسّكة بها هذه الأرض الكروية، التقطت بعض الصور الرائعة التذكارية في المنـزل من كلّ الزوايا والتي كانت لي فيها ذكريات مأساوية وجميلة في الوقت نفسه ، مع الحاج أمين وعائلته.
أخرجت بعضاً من الدولارات لأعطيها إلى الحاج أمين تعبيراً عن ودّي وتقديري واحترامي له ، فقد كنت أعلم طوال الأيام الثلاثة ، الأيام التي عشتها مع عائلته ، أنهم عائلة بسيطة قد تكون أقرب إلى مستوى الفقر وشيء من الحرمان ، والمعاناة التي واجهوها بتدبّر أموري كوني كنت بأمسّ الحاجة إلى العلاج والغذاء معاً ، وهذا ما رأيته في وجوههم التي كانت كالمرآة التي ترى من خلالها كلّ شيء ، وأعلم بأنّ عائلة الحاجّ أمين بأمسّ الحاجة إلى النقود بسبب ما طالهم من العوز والفقر والحرمان ، وهذا يعود إلى الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليهم الولايات المتّحدة الأمريكية بعد اجتياح الحكومة العراقية واحتلالها دولة الكويت ، وأعتقد أن هذه القرارات الجائرة التي تفرضها الولايات المتّحدة على الحكومة العراقية لا يكون ضحيّتها سوى المساكين والفقراء من الشعب وهذه العائلة المسكينة هي ضحية لعنجهية السلطة العراقية وعتاهة الإمبراطورية الأمريكية التي لا تظلم سوى الفقراء والمساكين من الناس والشعب ، بينما تترنّح الحكومة بكلّ صلافة ووقاحة لا تأبه لذلك ولا تبالي بما تؤول إليه أحوال الناس حتى وإن كلّفهم ذلك حياتهم ، فقد علمت من (حنان) مدى المأساة التي حصلت لهم على يد الحكومة والسلطة معاً وعلى رأسهم المتنفذون بالدولة ، تحدّثني صديقتي (حنان) في منتصف التسعينيات في الفترة التي أسمتها بالمظلمة ، سألتها وقتها عن سبب نعت

هذه الفترة بالمظلمة ، فما كادت تفصح لي عن السبب إلا بعد أن أطلقت تنهّدات تخرج من صدرها بحرقة وألم، تتغيّر تفاصيل وجهها كلّياً وتطرق برأسها ، فقد كانت كلّ العوائل العراقية الجنوبية تعاني من الجوع الذي أطبق عليهم وكتم على أنفاسهم ، ومازلت أتذكّر تلك الكلمات التي قالتها لي عن طحن أعلاف المواشي والأبقار ، اما التمور التي تقتات عليها الديدان الناعمة الصغيرة ، فكانت هي الأخرى لها حصّة كبيرة وفعّالة في بطون المساكين والفقراء بالإضافة إلى الأعلاف الحيوانية ، بينما تأكلّ رجالات السلطة ما لذّ وطاب ، رائحة الشواء تفوح من فوق منصّات الحكم ، رائحة اللهو والمرح تفوح من أجساد الراقصات ، رائحة الطغيان تفوح من قمع الشعب ، رائحة الديكتاتورية تفوح بركلّ هذا البلد برجليه وانزوائه تحت طيات ملذّاته وطغيانه.
فالمنطقة الجنوبية هي أمّ المقابر ، فالمقابر تتشظّى هنا وهناك في أغلب المناطق الصحراوية الجنوبية... دوماً ما كانت تحدّثني (حنان) عن جبروت السلطة التي أرغمت كلّ رجالهم ؛ ليملؤوا هذه الأرض بأجساد الشباب ، ليس لذنبٍ يذكر ، سوى أنهم أرادوا أن يقولوا قولتهم ، مندّدين بالظلم والقهر والطغيان ، فما كان من الحكومة إلا أن تقتادهم إلى أماكن مجهولة من الأرض ، لتدفنهم وهم أحياء ، وكان أشقّاء (حنان) الأخوة الثلاثة ، هم أبطال مغيّبون تحت الثرى ، انطمست معالمهم ولم يبقَ منهم سوى صور ، تخبّئها أمّهم في صندوق قديم بالٍ ، ذهبت محاسنه بمرور الزمن ، ولم يبقَ من كلّ تلك الذكريات ، سوى تلك الصور القديمة المتكسرة الأطراف والتي فقدت سرّ حيويتها بفقدانها أولئك الشباب أنفسهم.
بعد أن مددتُ يدي لإعطاء الحاج أمين تلك الدولارات البائسة التي كنت أتصوّر بأنه سيتشظّى فرحاً وسيقفز إلى السماء داعياً الربّ لي كوني أسهمت في التخفيف عن بعض المعاناة التي تقصم ظهر الحاج أمين ، لكنه أبى أن يأخذ تلك الدولارات ، وقال لي: نحن لا نأخذ المال مقابل مساعدة المحتاج ، وأنت كنت محتاجة إلى الرعاية الكاملة لتتماثلي إلى الشفاء ، لكنّي

أقسمت بأن هذه الدولارات ليست مقابلاً للرعاية التي أولاني إياها ، لكنها تعبير عن حبي لهم ، إلا أنها في حقيقة الأمر كانت ردّاً للجميل وديناً في عنقي قطعته على نفسي بأن أساعد تلك العائلة الفقيرة المحرومة التي تقتات على النزر اليسير من الغذاء البسيط.
أجبرت (حنان) على أن لا تنساني ، وعاهدتها بأني سأتذكّرها دوماً وأبداً ما دمت حية ، لأننا سنتّجه في صباح الغد صوب (بغداد) ، كان التوديع مؤلماً ومنظراً لا يطاق ، فقد رأيت الألم في عينيّ (حنان) عندما ترجمت عينيها بعض الدموع التي انطلقت كالسيل الجارف بل كانت دفقاً للدمع الدافئ الذي يخرج بشهوة البكاء ، مروراً بوجنتيها، بادرتها بدموعٍ أكثر حتى احمرّت عيناي من شدّة البكاء ، أشبه بعينٍ أصابها القرح وحولها من الصفاء والنقاء إلى عين هزيلة ، ضئيلة وضعيفة يطغى عليها لونٌ أحمر ، إلا أني فارقتها رغماً عني ، وقد ذكّرني هذا المشهد المأساوي باللحظات الأخيرة التي ودّعت فيها والدتي العزيزة ، فقد بكينا حتى ابتلّ وجهانا نحن الاثنتين بالدموع ، توجّهت بعد ذاك المشهد لأودّع آخر ما تبقّى لي في هذه القرية الجميلة ، فقد كان يمتلك من الفضل ما لا يمتلكه أحد بعد الحاج أمين ، نهض (باسم) على قدمٍ وساق عندما رآني لكنه لم يبادرني ذاك الشعور الذي يحّول جسمه إلى كومة خاوية من العظام التي تتساقط تساقط الأسنان النخرة ، فقد اختلف الأمر تماماً ما بين أن يراني بنتاً جميلة من أبناء جلدته مرتدية الثوب المطرّز بشتّى الألوان والشال الذي يتزاحم فيه مهرجان الألوان ، وبين ارتدائي للملابس العسكرية التي لا تُثير فيه أي إحساس بالنشوة والاشتهاء الجسدي ، كون الأنثى تجذب الذكور لها من خلال مظهرها الخارجي.
ثمة علاقة وطيدة وذات أواصر رصينة في علاقة تجاذب الأشياء ، فالمرأة كالزهرة الجميلة التي تجذب نحوها ملكات النحل ، أما المرأة بملابسها العسكرية التي تتحوّل فيها الأنثى من امرأة مبدعة خلابة تسرق بسحرها قلوب عشّاقها إلى أشبه برجل يرفع بيديه فوهة البندقية ليصوّب بها نحو أرواح

بشرية تفتك بها من تشاء ، فقد تفقد الأنثى سرّ جمالها الذي منحها لها الربّ، وذلك من خلال القيافة العسكرية التي تسلب الأنثى منابع بريقها ولبّ جمالها إذ تحولها إلى امرأة بلا أحاسيس ومشاعر ، مجرّدة تماماً ، كنصل شجرة نخرة اقتاتت على لبها حشرة الأرضة وحوّلت جوفها إلى نصل فارغ كأنبوب ماء ، وباتت للعيان ظاهرياً جميلة ؛ لكنها بلا جوف يذكر.
التقاطي للصور التذكارية معه كانت آخر ما تبقّى لي من ذكريات جميلة ومؤلمة في الوقت نفسه ، ودّعتُ هذا الحيّ الجميل على أمل أن أراهم في المستقبل الآتي أو أن تكون للصدفة دور في ذلك ، لأنّ الذي فعلوه معي كان جديراً بالاهتمام والاستحقاق.
في الصباح الباكر ، بعد أن بدّد الظلام كلّ خيوطه المعتمة المشعّة بالسواد الحالك ، وأذِنَ للنجوم بالرحيل والاختفاء خلف الكواكب السيارة والذوبان في متاهات فلكية وطرق كونية ، تتقارب الديكة فيما بينها ؛ بتعالي أصواتها تدريجياً من خلال صياح الواحد للآخر ، انطلقنا صوب (بغداد) إلا أني لم أكن على دراية كافية بما يخبّئ لي القدر من ويلات ونكسات ، من هموم ومتاعب ، من آهات ولوعات ونزف دم ، كان المستقبل يلوّح بكفّه البائس لي من بعيد نحو الاقتراب صوب العالم المجهول والمشحون بالتعب والهلاك ، كانت القوافل العسكرية المتدفّقة صوب العاصمة الحمراء ، أوردت إلينا أنباء عن سقوط بغداد على يدها، بعد يومين تمكنّا من الوصول إلى بغداد ، لا ترى في الشوارع سوى طوابير غير متناهية من لا شيء ، بل تشاهد كلّ شيء مزدحمة بفراغات لا يمكن وصفها ، الدبابات العسكرية التي تعصف سرفاتها بامتزاج أصواتها المرعبة تملأ أغلب الشوارع ، ضجيج الأصوات ينبئنا بوجود جيش جرّار لا مثيل له ، أرصفة تمزقها تلك السرفات تحوّلها إلى كومة حجارة تبعثرها فوق إسفلت الطريق الحار ، الذي يؤكّد لنا دخول صيف شديد الحرارة ، جوّ لم نعتده ، فولايتي تطلّ على المحيط الأطلنطي الذي يطوّقها

كشال جميل ويخفي كلّ مفاتنها عن سوّاحها العشّاق فقد كان يسترسل مرة بعد أخرى نسمات عبيرية تضفي على النفس الراحة والاسترخاء.
بعض الفارّين من الناس الفقراء الذي يطرق أبوابهم الرصاص ويحلّ عليهم ضيفاً ثقيلاً ، وتزعج مزاجهم الداكن زعيق المدافع وصهيل الإطلاقات النارية تجبرهم على ترك منازلهم والبحث عن مكان آمن يلوذون به للحفاظ على أرواحهم ، بعيداً عن صخب موسيقى الموت والفناء ، فقد يسقط بعضهم وينجو البعض الآخر منهم، لم نتعمّد قتلهم، إلا أنهم يسقطون إثر ذاك الكمّ الهائل من الرصاص المندفع الذي يسبح في الجو بغزارة ، لم تَرُق لي تلك المشاهد برمّتها، صخب الرصاص ، أنهار الدم ورائحة تعفّن الجثث ، لم أشاهد تلك الكوارث في حياتي على حقيقتها وبوضوحها كما هي ، وهذه هي مشيئة القدر في أن أرى كلّ ذلك ، وأنسى أهم الغرائز وأجملها لذّة ألا وهي معانقة الجسد للجسد ، بعد أن كنت أرى الدنيا مرحاً ولهواً وغريزة وجمالاً وصفاء ونقاء ، أصبحت أراها وأرى الوجه الآخر منها أشدّ وضوحاً ، قتل ودمار وخراب وأجساد لاذت أرواحها بالفرار تاركة ذاك الجسد يمتطي صهوة هذه الأرض ليعلن عن انحلاله وتفسّخه وتعفّنه فوقها ، أيّ تحرير ذاك الذي سقناه إليهم ؟ وأية ديمقراطية ننشدها على بقايا الجثث وحرق المباني وإتلاف البنى التحتية من خلال ضرب الجسور وتحويل المستشفيات إلى كومة حجارة وقطع الطرق بالصواريخ الموجّهة نحوها ؟ ، الصور الحمراء التي تشعّ منها رائحة الدم ، النساء الثكالى ، الأرامل ، والأطفال اليتامى ، حياة يشوبها الشلل ، بعد إتلافنا المؤسّسات سمحنا للصوص والسرّاق وقطّاع الطرق ومن يمتلك وجهاً غير بريء ، بنهب كلّ شيء بأيديهم وحرقت المباني وحلّ الخراب والدمار ، ولم يبقَ سوى رماد وركام من حطام الخراب ، اما القصور الرئاسية فكانت من حصّتنا نحن ، كان الأولى لنا أن نملأ جيوبنا النخرة ، لم أدرك حجم المعاناة التي عشتها في بادئ الأمر ، كنت أشبه بمغفّلة تحمل بين طياتها حلم التحرير ونشيد الديمقراطية ، فقد كنت أحسب أن الجميع جاء

لتحرير شعب من نظام مستبدّ وظالم سعى بكلّ ما أوتي من قوة لقهر هذا الشعب والعمل على إدامة نشوته من خلال ظلمه له ، كنت أحسب أن الهدف الرئيس هو أن ننشد الديمقراطية في كلّ مكان ونسهم بتوزيعها على كلّ دول العالم بلا استثناء ، كنت أتصوّر أن الجميع على قدرٍ عال من المسؤولية التي من أجلها كان دخولنا للعراق ، لكن لا أحد يستطيع أن يقاوم كلّ ما رأيناه في تلك القصور ، لا يخفى على أحد ، أن أي إنسان مهما امتلك من المبادئ والقيم فلن يستطع أن يترك تلك الأموال تذهب سدى من دون أن تتطاول يده وتأخذ من هذه الأموال ولو النـزر اليسير ، القصور فتنة عظيمة ، التماثيل الذهبية المصنوعة من أجود أنواع الذهب في العالم ، كالأصنام ، منها الواقف والجالس والجاثي على ركبتيه، كالتي تحيط بقبلة المسلمين قبل صدر الإسلام ، التقنية الهندسية الجميلة في صنع هذه التماثيل ، ذهب ومجوهرات وحليّ وخزانات أموال تضجّ بها الدولارات الأمريكية ذات الفئة النقدية العالية ، رصّت على شكلّ رزم مرتبة وجميلة مطوّقة من منتصفها بحزامٍ أبيض وعلى ذاك الحزام ختم لوزارة المالية ، مازالت تلك الدولارات عذراء لم يفضّ بكارتها أحد من قبل ، تملأ خزانات القصر بكثافة ، أشبه بخزائن كسرى ومجوهراته الذي ولّى وترك كلّ شيء للآخرين ينعمون بها ، بل أصبحت غنائم لمن هتك واستباح حرمة عرشه المسكين ، أيّ رئيس ذاك الذي يقتات على أرواح الفقراء ودماء الأبرياء ؟، فلم تكن الأموال التي عثرنا عليها في الخزانات هي وحدها بل تّم اكتشاف بعض من الجدران الخفية التي كانت عبارة عن خزائن مخفية، كانت أوسع وأكبر من الخزانات الظاهرية ، الأموال أكثر من أكفان الموتى ، ميزانية تكفي مدّة خمس سنين على أقلّ تقدير لميزانية مثل ميزانية ولاية بنسلفانيا أو كولاية كبيرة مثل ولاية واشنطن ، القصور الفارهة وطراز حديث ونقوش تزيّن الجدران من ذهب مصفّى أضف إلى ذلك تلك الأثريات المتدلّية من أعلى قبّة تقبعُ منتصف القاعة والمرتبطة من جوانبها بالسقف الهائل وهي أيضاً مصنوعة من أفضل وأجود أنواع الذهب ، المسابح الملحقة بتلك القصور

والصور المعلّقة على المسابح التي تضفي على روّادها صفة المراهقة والاستهتار لأنها تثير في من يراها إثارة ، أشبه بإثارة الهواء للغبار ، أقراص ممغنطة تحمل بين طياتها أسرار اثنين من الأشخاص لا يمكن أن يطلّع عليها ثالث ومن ينظر إليها بشغف أو يحاول أن ينتشي بعينيه ، فلن يرى سوى اثنين فقيرين مسكينين لا يملكان قطعَ قماش يستران بها أنفسهما ، أو حتى من ورق الأشجار البسيطة ليواريا سوءاتهما ، لا أتصوّر مدى الشذوذ والانحراف اللا أخلاقي الذي وصل إليه هؤلاء القائمون على أرواح الناس، العادات والتقاليد التي عشتها هناك في ولايتي تسمح لي بل ولا تعارض إذا تعرّفت على صديق كـ (لورانس) حيوياً وفعّالاً، كما لا تعارض عاداتنا وتقاليدنا إذا حاول (لورانس) أن يفعل أي شيء بالنسبة لي حتّى وإن افتضّ كلّ ما لديّ ، إلا أني لا أعتقد أن عادات وتقاليد بلد كهذا تسمح للآخرين بالتمتّع والتلذّذ بالآخر ، أيّ سلطة تلك التي تستطيب لها الشهوات؟ بينما يعاني شعب بأكمله الجوع والفقر المدقع والحرمان ، الشعب في وادٍ والسلطة في وادٍ آخر ، وهذه الأسباب بأجمعها تعطينا تفسيراً واضحاً وجلياً لرضا الشعب وتأييده في بعض المناطق للاجتياح وبسهولة في أغلبها ، القصور مدعاة للاستغراب والدهشة ، مملكة لم يمتلك قيصر مثلها في أوانه ، لكنها من أروع ما رأيت في حياتي ومن أجمل ما شاهدته عيناي ، نحت هندسي أبدع في إيجاده أروع المصمّمين ، الرفاهية لذات الصنم والفقر لملايين من الأشخاص بل لعامّة الناس ، المسابح جميلة جدّاً لا يمكن وصفها وعند ساحتها قضيت أجمل الأوقات فهي تذكّرني بولايتي المطلّة على المحيط الأطلنطي بشواطئه الرائعة التي يغلب عليها صفتا المدّ والجزر ، فترة استجمام مذهلة قضيتها وقت إذ مع زملائي في الكتيبة العسكرية المتمركزة في القصور الرئاسية ، وبعد أن تربعنا على عرش المملكة العراقية والاستيلاء على كل مدّخراتها وخيراتها أصبحنا عازمين على كيفية الهيمنة المطلقة من دون خسائر أو مقاومة تذكر هنا وهناك، فارتأينا ضمن الخطة التي وضعها

خبراء اختصاص في مجال المكر والدهاء والصراعات الداخلية التي تجعل من الآخرين ينشغلون مع بعضهم الآخر ليتسنّى لنا الحركة بحرية تامّة وفق خاصيتي التمدّد والانبساط وقد دونّا كلّ الخطط وأغلبها في كتاب ينظّم كل سنة يرفع إلى البيت الأبيض ويطبع بسرية تامة يدعى (الكتاب الأسود) وقد جاءت هذه التسمية نسبة إلى الصندوق الأسود الذي يحتوي بداخله كاميرا تصوّر بعض اللقطات بسرية تامة يعثر عليه عند تدمير الطائرة أو عدم معرفة مصير الطيار إذ تحوي بداخلها فلماً وثائقياً يعطي انطباعا حقيقياً لمصيرٍ مجهول ، وهذه التسمية بفكرتها تلك وضعت ضمن عدة تسميات قام بوضعها بعض الجنود موضحين الفكرة لتلك التسميات ، حيث كنت ضمن المشاركين في هذه المسابقة وأتذكّر أني وضعت أيضاً عنواناً لهذا الكتاب كان (المقبرة) لأن المعلومات التي تدخل في هذا الكتاب تكون ضمن قائمة الموتى وليس من السهولة الاطّلاع عليها ، إذ لا حياة بعد الموت، وكون الجثة التي تدخل بوّابة القبر تفقد جمالها وملامح وجهها وتصبح عظاماً خالية من اللحم الذي يزيّن الجسد الرتيب ويتقن صنعه الإله العظيم ، استبدلت هذا الاسم باسم آخر وأطلقت التسمية لهذا الكتاب (الأماني) كون أمنية الولايات المتّحدة الأمريكية قد تحقّقت منذ دخولها أرض العراق ، فقد كنت أغفل كلّ هذا ابتداءً من مركز التطوّع الذي ذهبت إليه وحتى هذه اللحظة ، إلا أن القائمين على اختيار تسمية الكتاب اختاروا اسم (الكتاب الأسود) تيمّناً بالصندوق الأسود وهكذا فقدت أنا التسميتين اللتين اخترتهما لهذا الكتاب ، الكتاب يضمّ بين طياته معلومات خطيرة لا يمكن الإطلاع عليها بسهولة فهو عبارة عن مذكّرات عشوائية وهمجية فيها القتل والدمار، البكاء ، الذكريات الأليمة ، الاغتصاب ، الفتن ، الانشقاقات، المكّون العراقي ، كلّ ما يمكن كتابته من قبل الجنود ، يدون بهذا الكتاب ثم يرفع إلى ساسة البيت الأبيض الذي يتمركز وسط الولايات المتحدة ، وبعد أن يتم طباعته تتلف الحاسبة الإلكترونية التي تمّ بها طبع الكتاب لئلا يكون أثر لذلك الكتاب في أجهزة الكمبيوتر.

بعد أن استقرت قطعاتنا العسكرية ومنذ الوطأة الأولى لأقدامنا داخل العاصمة بغداد ، أخذ الناس يقتربون منا شيئاً فشيئاً ، وما إن زال الخوف منهم تدريجياً ، حتى انسابوا كسرب نمل لنهب المباني الحكومية ، وأصبحت بعض المؤسسات الحكومية بأيدي بعض المتعطّشين إلى السرقة ، كما لا أستثني بعض الفقراء والمحرومين ، بعد أن كانت حكراً لطبقة معلومة أصبحت اليوم بأيدي الجميع ، تلك القصور التي كان لا يدخلها سواه وحاشيته باتت اليوم في متناول أيدي الجميع.

الشعب فاغر فاه يريد التهام كلّ شيء ، لا يريد البقاء على أي شيء ، كلّ شيء ، فقد لا تلتهم النار اللاهبة كلّ شيء ، إلا أن هؤلاء سلبوا حتى الجدران أثوابها المنقوشة بالسيراميك ، أصبحت الجدران شبه عارية ، بل كوجهٍ لرجل أعور فقدَ إحدى عينيه.

بعد بضعة شهور من دخولنا العراق ، أحسست برغبة ملحّة وشديدة بأن أرى ولايتي ومدينتي ، وشعرتُ بحاجة ماسّة بالتحافي مع (لورانس) تحت غطاءٍ واحد منذ أن ضاجعت بندقيتي طوال تلك الشهور.

قرّرتُ العودة من حيث أتيت فلم ترقْ لي هذه الصور وتلك المشاهد ، البلد الجميل يحوّلُ إلى بقايا قمامة وأشلاء ترابية ، قطعُ من الزجاج والحجر يمتزجان في آن واحد ،كصديقين لايفترقان ، وذرات من حطام ، لا أحبّ مشاهدة الخراب والدمار إلا أن الحرب لا تخلّف سواهما ، تمزّقني رغبة جامحة في العودة حيث أحضان ولايتي ، مدينتي ، أمي... ولورانس ، آمل أن لا تصاب ولايتي بهذا الداء وان لا تصبح كهذا البلد السقيم ، الخوف يتملكني ويبعدني تماماً عن زجاجات الخمر التي تقودني دائماً إلى آمالٍ وأحلامٍ نائية ، بات الخوف أيضاً يلوّح بيديه الثقيلتين علينا ، كالكابوس المزعج لا يفارق طيفي ، فكأس الخمرة بطوله الممشوق الذي ما انفكّ يفارق شفَتيّ ، لا أجد الرغبة الحقيقية في امتطائه لئلا أقع في أيدي من أخاف وأحذر ، أو أقع بأيدي المغامرين ممن يتفنّنون في إطلاق الرصاص وبالتالي أكون فريسة

سهلة ، دوريتنا بين الحين والآخر تتعرّض إلى إطلاقات بالأسلحة الخفيفة وبعض قذائف الهاون ؛ وهذا ما حدا بنا أن نكون أكثر حذراً ويقظة ؛ كى لا تتهاوى أرواحنا في مستنقع الموت ، وبتنا نخاف أن نمتطي صهوة الطرقات والدخول في الأزقّة الضيقة والشوارع الوعرة، الخوف يملأ جسدي ، يقتل في نفسي صورة تلك الفتاة الجميلة التي اعتاشت على الصفاء والجمال وحبّ الآخرين والابتعاد عن شبح الموت ولون الدم المائل إلى اشتداد غروب الشمس، والروائح الكريهة التي تشمئزّ منها النفوس المنبعثة من شواء الأجساد البشرية ، وقتها أصبت بالذعر واليأس ، وسعيت جاهدة في التخلّص من هذا المأزق الكبير الذي وقعتُ فيه ، ومن اللعبة السياسية القذرة التي قادتنا لها الحكومة الأمريكية ، فنحن لسنا بحاجة إلى أن نجوب البحار والمحيطات ونغزو بلداً كهذا ، الأوضاع قلقة والأجواء مربكةٌ جداً والخوف واليأس وجهان ما فارقاني منذ بروز البعض لمقاومتنا.

أحلامي في الدراسة ذابت وتلاشت ، ذوبان الثلج بوقار وسكينة عند تعرّضه لأشعة الشمس الحارقة ، جسدي يتعطّش شغفاً للقاء (لورانس) ، كما أتعطّش لاحتساء كوبٍ من الخمر في حانة العم ديفيد ومستودع نشوته حيث غرفته السرّية التي يصحبني إليها بعد أن تسكن الأجراس وتهدأ الأنفاس ؛ لأصحو مبللة بقطراتٍ ندية تخرج من زائدة لحمية في جسده البليد ، أما (لورانس) فكان يمتطيني وضح النهار في أي وقت يشاء.

محركات المركبات العسكرية ، سرف الدبابات ، كلّ ذلك ؛ يملأ يافوخ رأسي ويزعجني ، الاكتئاب خيّم على ما تبقّى من حياتي ، المركبات العسكرية التي ارتأت أن تقف هنا للانتشار في هذه المنطقة ، ارتأيت أنا أيضاً أن أنزوي وأجلس خلف ذاك الجدار لأستظلّ بظلّه قليلاً ، ولأُبدّد مصادر الخوف التي تملّكتني، اتّكأت ساندة ظهري على ذاك الجدار ، جالسة على الأرض ، بعد أن أجهدتني تجهيزاتي العسكرية وتلك القطعة الحديدية التي تغطّي المنطقة العليا من جسدي ، مداعبة برجليّ المدودتين فوق التراب ، وحذائي الأصفر

اللون ، الذي يقابلني ، وجهه بوجهي وكأنه وجه رجل شاحب ، أصابع يدي تداعب التراب ، خارطة الألم رسمتها بأصابعي البيضاء فوق ذرّات الرمل الباردة ، وقع بيدي قلم تعلوه غبرة ذاك التراب البارد ، مسحت الغبار الخفيف عنه ، وبراحة يدي الأخرى كتبت (I love life) ، أنا أحبّ الحياة ، وتوافرت لديّ شهوة كبيرة ؛ لاعتناق مشنقة هذا القلم ، وأضع فوق فخذي ورقة أكتب رسالة لأمي التي لا أراها إلا عندما تدركني هالة من الخوف أو أشعر بالموت الذي قد يراودني على غفلة من أمري، ورسالة أخرى لصديقي (لورانس) ، وما إن توافرت في الجانب الآخر من الجدار ، قطع من الورق الذي كان يدحرجه الريح مع أكوام النفايات والأتربة المنبعثة من صخب الهواء المتدفّق بشدة ، بحثت في تلك الأوراق الراقدة أسفل ذاك الجدار ، وجدت أوراقاً تعود لمؤسّساتٍ حكومية ، رسم عليها شعار حكومي ، ومن حسن الحظ كان ظهرُ الأوراق يخلو تماماً من أية كتابات ، ما إن وضعت الرأس المدبّب للقلم على تلك الأوراق ، حتى تدفّقت مني سيل من الكلمات ، التي كنت لا أجيد التعبير عنها كلامياً، فالقلم استطاع التعبير بطلاقة تامة وبجدارة كبيرة، إلا أني وجدتُ تفسيراً واضحاً لهذا الشيء ، هو ما كنت أعانيه من كبتٍ واضح دكّ مسامات حياتي ، وجعلني في ضيقٍ من أمري ، كانت الكلمات تساعدني على التنفيس والهروب من الواقع المرير الذي مررت به طيلة تواجدي في العراق.
الرسالة الأولى كانت لأمي ، إذ كانت سرّ اشتياقي ، منزلنا الخشبّي ، الستائر الملونة ، النافذة التي كنت أرقب من خلالها هطول المطر ، تمايل الأغصان الخضراء عند هبوب الريح، اللهب المنبعث من المدفأة وقت اشتداد البرد ، وصورة معلّقة على أحد الجدران تنطق... كلّما نظرتُ لها ولكن بصمت شديد ، ألبوم صوري الجميل يحمل بين طياته ذكريات جمة ، عُلبُ البيرة التي تزين رفوف الثلاجة ، الطريق الطويل الذي يحملني صوب حانة العم ديفيد ، تساقط الأوراق الخريفية بهدوءٍ شديد ، كفراشاتٍ تحلق وسط الأزهار ، كلّ شيء كان واضحاً في رسالتيً ، الصور الجميلةً كانت حاضرة ، لم يفتني

شيء ، حتى العصافير التي كانت تزقزق بصوتٍ خافت ، كانت هي الأخرى حاضرة في رسالتي.
الرسالة الأخرى كانت لصديقي (لورنس) ، ارتطام الكؤوس الواحد بالآخر في الحانة ، السير ليلاً ، الاختفاء خلف الأشجار العارية التي تقلع أثوابها في فصل الخريف خجلاً منا أو اشتهاء لما كنا نفعله ، صوت أقدامنا التي تقرع الإسفلت المؤدّي إلى الحانة ، كأن حبيباً يطرق باب القلب ، ضحكة لورانس ، ملامح وجهه ، قاعات الرقص ، كل هذه الاشتهاءات تحفر في نخاع ذاكرتي، ليس من السهولة نسيانه أو التخلّي عنه بهذه البساطة الساذجة ، بعد إتمام مسوّدة الرسالتين، طويتهما برفق وأزحة الكابوس الجاثم على صدري المتمثّل بالقطعة الحديدية التي تجهدني وتسلب صدري سرّ جماله وأناقته ، لأضعهما في جيبي ، بعد الانتشار الميداني وقطع الطريق على المركبات التي تجمّعت على شكلّ أسراب ، أشبه بسرب نمل يسير على الأرض وفق نسق هندسيّ ، توجّهنا صوب مقرّاتنا المتمركزة في قلب العاصمة بغداد ، بعد القيلولة والاسترخاء في المقرّ الرئيس لقطعاتنا ، جدّدت الرسالتين بورق جميل ، ناصع البياض ، وضعتهما بمظروف وأرسلتهما إلى صندوق بريدهما ، كتبت لهما في الرسالتين عنوان بريد الكتروني جديد لي ، للمراسلة عبر الانترنت ، وقت فراغي أو عند استراحتي وخلوّي أمام كمبيوتري المحمول ، وقت الفراغ أختلي بالشات الذي اطّلع من خلاله على العالم الخارجي ، وأهرب من واقعي الأليم.
وذات يوم بينما أنا منشغلة بفتح الشات للمحادثة برزت قطعة صغيرة يزينها ذاك الوجه الضاحك ذو اللون المائل لأشعة الشمس عند استقرارها في كبد السماء ، بابتسامته العريضة ، أحد الأصدقاء أضافني إلى قائمته التي تضمّ أصدقاء عدة ، كان الشخص المضاف في قائمتي هو أول شخص قد أضفته بعد أن فقدت صندوق بريدي القديم وتعطّل بسبب مشاكسات قراصنة الكمبيوتر الذين يتعطّشون للسيطرة على عالم الالكترونيات ، وما أن أتممت

عملية الإضافة حتى رأيت المفاجئة التي كنت أرقبها بين الفينة والفينة ، كنت أنتظرها وبشغف كبير ، كان لورانس أول من أضفته في قائمة الشات الجديدة، تشظّيت فرحاً ، وهممتُ بأن أحضن جهاز الكمبيوتر، لأول مرة أرآه بتلك الهيئة التي عهدتها سابقاً ، لم تتغير ملامح وجهه ، حتى ابتسامته هي الأخرى تزدادُ نظارة وجمالا ، وتزيّن واجهة وجهه ، كان ينقل لي أخبار أمي التي لم تفارق البكاء منذ مغادرتي المنـزل حتى هذا اليوم ، قال لي: كنت دائماً أذهب لزيارتها ، أتصفّح الجدران ، وأطالع بعينيّ صورتك التي تزيّن صمت الجدران ، نافذتك التي كنت تنظرين عبر زجاجها ، وعينيك اللتين كانتا ترقبان الطريق تنتظراني متى أجيء ، كلّ ذلك كان له صدى في مخيلتي ، لم أتمالك نفسي ولورانس يحدّثني ويذكّرني بأجمل الذكريات التي قضيناها معاً ،كانت دموعي لا تمتلك الوقوف في محجريهما ، تنحدر على خدَّيّ بغزارة وأنا ألحظ بمخيلتي كلّ الصور الجميلة التي غابت عن ذاكرتي بسبب الألم الذي يعتصرنا ونحن نجوب الشوارع والطرقات ، لا نسمع صوت الموسيقى ، ولا نشاهد قاعات الرقص الفخمة... لكنك ترى كُتل النيران تتدفّق صوب كلّ فجر جديد ، وتشاهد الجثث تطرب وتتراقص في قاعات الموت الكبرى ، أحسست بجزعٍ كبير ، بينما تجوب روحي طرقات مدينتي ((بالتيمور))....
صوت صافرة الإنذار يبدّد برنينه روحي الهائمة في شوارع وحانات مدينتي ، يوجّه لنا دعوة للتجمّع والتهيّؤ للانطلاق حيث واجب جديد أو مداهمة لا نجني منها سوى الخراب والدمار ، وقد تصاب عرباتنا بالتعطّل والعطب من جرّاء عبوة تزرع لها على جانبي الطريق وما يزرع لنا على هذين الجانبين لا يؤدّي فقط إلى تعطّل وعطب المركبات بل يؤدّي إلى خروج أرواحنا وتوديعها هذه الدنيا ، بافتقادهم... تُثكلّ بهم أمّهاتهم ، وأسرهم المسكينة ، وقد يرتقي الحال بي لأكون ، أنا إحدى تلك الضحايا التي تمزّق أشلاؤها على هذه الأرض ، استأذنت (لورانس) عبر نافذة الشات للذهاب صوب موت جديد ، في المناطق التي تتمركز شمال بغداد ، انطلقت عرباتنا بسرعة فائقة تتسابق مع الريح

في مباراة ماراثونية ، الرصاص ، المعارك ، كلّ شيء في هذه البقعة من العالم ، اليأس يتملّكني، الصور المأساوية ... كلّ هذا لا يروق لي، المدفع الرشّاش الذي يمسك به (جيم) لا يهدأ دائماً ولا يفضّل السكوت ، فهو لايكلُّ ولايملُّ ، وأنا أعرف تماماً أن هذا المدفع لا يميّز بين شيخ وامرأة وطفل صغير، لا يعرف الكبير أو الصغير ، كما لا يفرّق بين المسيء وغيره ، وما إن يمسك (جيم) بيده التي لا تعرف الرحمة ولا الشفقة حتى تصاب أذنك بالضجر من عواء المدفع الرشّاش وترى لسع الرصاص على الجدران ؛ وتساقط الكثير من الأرواح ، التوغّل بالأزقّة الضيقة الموحلة ؛ التحدّث مع جموع الناس الذين يرقبون سير المركبات بخوف شديد وبعينين مسكينتين مبتعدين كلّ البعد عنّا ؛ كأنا أشباح أوشياطين تطأ أرضهم ، فحاجتنا لوجود مترجم كانت من الحاجات الأساسية التي تقربنا من أولئك المساكين ؛ خصوصاً أن المترجمين بعد دخولنا إلى العراق، أي المترجمين العرب الذين لهم الدور الفاعل والمميّز والحضور الرائع ، أمثال أدور المسيحي اللبناني الأصل ، ورفعت المصري ؛ الذي كان يأسف دائماً على ما آلت إليه الأوضاع في العراق ، كان (رفعت) أحد العاملين في العراق عام 1984، كان يعرف جيداً الشوارع المميزة في قلب العاصمة العراقية (بغداد) ، الساحات العراقية الجميلة ، الحدائق ، المتنزّهات ، أغلب طرق العاصمة وشوارعها يعرفها تماماً ، كنت أعتقد أنه يعرفها أكثر من أهلها، حديثه دائماً يتمحور حول الرئيس العراقي (صدّام) ، المديح والثرثرة الكثيرة علامات تميزه ، بوجهه الأسمر ، ومنكبيه البائسين ، وشعره الأجعد الكثّ ، وعينيه الصغيرتين ، أسنانه الصفراء وفمه الذي لا ينفك عن الثرثرة ، مهوساً باللغة الانكلّيزية ، فقد تخرّج من جامعة القاهرة ، وله دراية ببعض المفردات الأجنبية التي نستخدمها نحن ، سألته ذات يوم عن مصداقية كل الحكايات التي يقصّها عليّ في أوقات الفراغ ووقت الاستراحة وليلاً قبل الخلود إلى النوم ، أتذكّر تماماً تلك القصص التي رواها لي في منتصف الثمانينات ، وقتها كان العراق للعرب وليس للعراقيين....

العرب ، هم الأسياد في هذه البقعة من الأرض ، أما العراقيّون فهم المضطهدون ، وإذا حصل شجار بين مواطن عراقي وآخر عربي ، حتى وإن كان الخلاف بسيطاً ، فهو جريمة يعاقب عليها القانون وقت إذ ، فبأمر من الرئيس ؛ يسجن ، وربما لا يخرج من قعر السجن حيث الرطوبة التي تعانق الجدران ، العفونة ، البراغيث التي تتّخذ من الشقوق مسكناً لها ، وعند انتصاف الليل تسارع البراغيث لتكون ضيفاً ثقيلاً على السجين ، خصوصاً أن الرئيس العراقي كان في نظر العرب (فارس الأمة) و(بطل التحرير القومي) ، والعراقيون يعرفون تماماً أن رئيسهم لا يمتلك كلّ هذه الصفات سوى أنه تسلّط على رقابهم بحدّ السيف ، كان (رفعت) صديقاً حميماً لابن مسؤول عراقيّ سابق ، شاهد بعينه البذخ ، السهرات الليلية ، قاعات الرقص وأعجاز النساء التي تستقطب أمّهات الفحول ، السيارات الفارهة، والعيش الرغيد يؤطّر حياتهم ظاهرياً وباطنياً ، وأطرق ذات ليلة متحدّثاً إليّ:

بينما كنت أجوب شوارع القاهرة أبحث عن عمل ؛ تعرفت على صديق لي وعرض عليّ السفر إلى العراق ، لأن العراق بلداً يمتلك من الثروات ما لم يمتلكه أيّ بلد عربي آخر ، وكان في منتصف الثمانينات يسبر في غور حرب لا طائل منها سوى إرهاق الشعب وإهراق الدماء على أرض تقشعرّ حبّات رملها من تلك الجثث ، وتبقى أرضهم نديّة محمّلة بالمبادئ والمآثر ، وما أن دخلت العراق حتّى لم أوفّق في إيجاد عمل يليق بمقامي كرجلٍ أجيد اللغة الانكلّيزية وأستطيع تدريسها بطلاقة، فعملت وقتها مع أحد رجال الأعمال في البناء ، أحمل الطابوق والإسمنت ، وبعد أن علِمَ هذا الرجل المقاول أني أحمل شهادة البكالوريوس في اللغة الانكلّيزية من جامعة القاهرة ؛ حتى لان قلبه لي وقام لا يكلّفني إلا ببعض الأعمال البسيطة ، وغالباً ما كان يجعلني أشرفُ على بعض العاملين ، وذات يوم كنت أعمل معه في أحد القصور الرئاسية الفخمة في قلب العاصمة بغداد، إذ كان هذا المقاول من الرجال الذين يعتمد عليهم في مثل هذه القصور التي لا يقربها إلا من يكون موضع ثقة بالنسبة

للسلطة، كان القصر فخماً ، العاملون بهذا القصر كُثر إلا أن ما لفت انتباهي أصحاب القيافات الجميلة والنظيفة ، أغلبهم يرتدون بّزة شديدة الاخضرار يقال لها باللهجة العراقية (زيتوني) ، وآخرون يرتدون البدلات المرقّطة بأيديهم أفخر الأسلحة ، القيافة التي يرتدونها جميعاً نظيفة ومؤهّلة لأن تكون بدلة زفاف في ليلة عرس، الطرق المؤدّية للقصر ملتوية ، التواء الأفعى في الغابات الصنوبرية ، وعلى جانبي الطريق تنحني كلّ الأشجار خوفاً منهم وهم ينتشرون على طول الطريق ، باب الاستعلامات... غرفة للتحقيق ، إبراز الهوية أمرٌ لابدّ منه ، الطامة الكبرى إذا كان الشخص جنوبياً ، فهو يُذلُّ ويهان ؛ من أجل إيجاد فرصة للعمل يسد به رمقه على اعتباره من جنوب العراق لأنها من المناطق التي كانت تعارض السلطة ، وما أن ابرزُ هويتي حتى يرحّب بي كوني مصريّ الجنسية ، في الداخل يذهلك البناء والتصميم والحدائق وكلّ شيء ، الذين يرتدون البزّة (الزيتونية اللون) يملؤون القصر ويشرفون بأنفسهم على كلّ الموجودين ، بينما كنت أمارس عملي كعامل يحمل بين يديه النحيفتين بعضاً من الطابوق ، لأن الإشراف كان يغيب عنّي بعض الأحيان ، رأيت أكثر الذين يرتدون البزّة الزيتونية يتدافعون كحلقة حول شخص ويفسحون له الطريق ، أشبه بمسؤول يشقّ طريقه وسط جموع المصفّقين له ، وهذا ما راودني بلا أدنى شكّ ، هيئته الخارجية توحي لي بأنه أحد رجالات الدولة الذين يعتمد عليهم ؛ ولا يمكن الاستغناء عنهم، اقترب منا، يتفقّد ما آل إليه البناء في القصر ، وما أن وضعت الطابوق على الأرض حتّى سقطت إحداهن على رجلي ، تفوّهت بعبارة تذمّر باللغة الانكلّيزية ؛ لأنني كنت من الذين لا يفارقون هذه اللغة التي كانت تسري منّي مسرى الدم في الشرايين ؛ وكانت جزءاً من حياتي ، وهذا ما جذب انتباههُ نحوي ، توقّف قليلاً ، واستشاط أفراد حمايته ذعراً يترنحّون ويحومون حوله ، أشبه بحصان يسقط عن ظهره من كان ممتطيه ، يزجر بصهيله ويدكّ الأرض بحوافره ويهزّ رأسه ، كأنه يهزأ بمن يجلس على ظهره ، رجل يمتاز بطول قامته وبشاربه الكثّ الذي يغطّي فتحة

فمه ووجهه الأصفر ويحمل فوق كتفيه خطاً أحمر وسيفين متقاطعين وتاجاً كشعار العلم العراقي بيده عصا سوداء وعلى رأسه خوذة حمراء اللون يميل هذا النسر الذي يمثل الشعار العراقي قليلاً إلى اليمين ، كجنرال يتفنّن في ارتداء خوذته ، يحثُّ السير بخطا كبيرة ، وبنظراته الحادّة شاهدتُ بريقاً يلمع بين عينيه ، أشار بإصبعه لي ، أن اقْدِمْ عليّ ، تسمّرت قدماي وخارت كلُّ قواي وفقدتُ صوابي ، لم أقدِرْ على الحراك، فعصف بوجهي قائلاً : تقدّم هيا بسرعة ، فقدمتُ إليه أتلعثم في السير كما تلعثمت بكلامي تلعثم الطفل الصغير ، تقدّمتُ نحوه بقلب خافق ، ورجلين لا تقويانِ على حملي ، وجسد يهتزّ ، ابتدء من رأسي وحتّى أخمص قدمَيّ كالسعفة في مهبّ الريح تتقلّب يميناً وأخرى شمالاً ، فتوجّه لي قائلاً :

- هل تتكلّم الانكليزية؟

- نعم... سيدي.

- يبدو من لهجتك ، أنّك عربيّ الجنسية؟

- نعم... ياسيّدي فأنا مصريّ الجنسية.

- وما تحصيلك الدراسي؟

- حاصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الانكلّيزية من جامعة القاهرة.

- جيّد... لا بأس.

- وما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أطلب الرزق سيدي ، فأنا الرجل الوحيد المسؤول عن خمسة أفراد من أسرتي المسكينة بعد وفاة أبي وشلل والدتي.

تركني وأوسع الخطا حثيثاً وأفراد حمايته يهرولون يحيطون به من كلّ جانب ، يتفقّدون المراحل النهائية لإنشاء هذا القصر.

عادت الروح إلى جسدي المرتعش من شدّة الخوف ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، جاء ثلاثة أفراد مدجّجين بالسلاح ، اقتادوني كما يقتاد الذئب الكبش ، أسير معهم سيرَ من لا حول له ولا قوة، إلى أن وصلتُ إلى بابٍ

مصنوعة من أفخر أنواع الخشب، كُتب عليها (المديرالعام) فوقفتُ دقائق معدودات حتى أُذِن لي بالدخول ، ازداد خوفي كما رأيته أول وهلة – بل أكثر من ذلك- فتقدّمتُ برجليّ المرتبكتين ، فأشار بكفّ يده اليمنى ، أجلس ، قلتُ له: أنا ، قال: نعم... اجلس هنا ، وما أن جلست حتى عرض عليّ صفقة عمل جديدة ، فقال:

- ما اسمك؟

- رفعت ، سيدي.

- كم عمرك؟

- 37 عاماً.

- اسمع يا رفعت ستكون المدرّس الشخصي لولدي (مصعب) في درس اللغة الانكلّيزية ، وسأعطيك راتباً شهرياً ، لا بأس به وسأوفّر لك مسكناً خاصّاً بك قريباً من المنـزل وسأكفلك من جميع النواحي ، ما قولك بذلك؟

- لا مانع لديّ سيدي.

- إذن سيأخذك أحد أفراد حمايتي وسيعرّفك بولدي (مصعب)، وستستحمّ هناك، ويتكفّل الحماية بإعطائك ملابس جديدة وستكون ذا شأن كبير.

- على الرحب والسعة سيدي.

وتمّ أخذي إلى المنـزل في أحد المناطق الجميلة في مدينة بغداد كانت تدعى بمنطقة (العامرية) ، ما إن وصلنا إلى تلك الدار حتى تبيّن لي أنها عائلة يستحقّ العيش معها ، النقوش الجميلة تزيّن واجهة البيت ، الحديقة الفارهة وأشجارٌ جميلة تُظلّل الممرّ المؤدّي إلى داخل الدار ، غرفة الضيوف واسعة جداً وفي نهايتها البعيدة تمركزت طاولة خشبية مصنوعة من أجود وأفخر أنواع الخشب ، تحيط بجانبيها المتدّين طولاً ، كراسي خشبية ، وفي رأس الطاولة هناك كرسي مميز يختلف عن باقي الكراسي، أعتقد انه كان يدير اجتماعاً لبعض المسؤولين في هذه الغرفة، أما الرأس الآخر من الطاولة فكان خالياً تماماً من وجود كرسي، صورة الرئيس العراقي معلّقة على أحد جدران

الغرفة ، وساعة جدارية رائعة في الجانب الآخر ، ومن يجلس على الكرسي الذي يقع في رأس الطاولة يشاهد تلك الساعة الجدارية وتكون الصورة خلف ظهره تماماً ، في هذا المكان كان لقائي بـ (مصعب) أول مرة، هو طالب في الصفّ السادس الإعدادي ، ذو وجه أصفر ، أسود الشعر وعيناه كعيني أبيه واسعتان تميلان بعض الشيء إلى السواد ، ذو بنية ضخمة ، عصبيّ المزاج ، غجريّ الألفاظ يمتاز بالاستهتار وانعدام الأخلاق تماماً.

في بادئ الأمر واجهتُ أمراً في غاية الصعوبة ، يتذمّر (مصعب) دوماً من الدراسة وكأنها فرضت عليه ، والتقيتُ في يوم من الأيام بمدرّسهِ الذي كان يدرّسه مع زملائه الآخرين بأحد مدارس بغداد ، كان يعاني منه لأنه ابن أحد المسؤولين ويفرض نفسه على أساتذته بالقوة وأحيانا بالرشوة ، كان يرفض دائما أن أخلو به لأقرئه دروسه ، إلا أني خصّصتُ له وقتاً محدّداً للقراءة وبالتحديد بعد التاسعة مساءاً ، إلا أنه رفض ذلك الوقت ، وعندما سألته عن سبب الرفض ، أجاب قائلاً : إني بعد التاسعة مساء أذهب إلى بعض أصدقائي وصديقاتي للسهر حتى منتصف الليل ، ثم العودة إلى البيت ، كان والده لا يقبل بخروجه ليلاً ، لكنه كان يستغلّ فترة انشغال والده ومبيته خارج البيت خصوصاً أن الأوضاع في العراق كانت مشتعلة حدّ الثمالة ؛ بسبب المعارك الطاحنة العراقية – الإيرانية التي طفح دمها في كلّ أصقاع الوطن العربي ، كان العراق يحارب ويقاتل ، بينما يقف العرب موقف المتفرّج، اللامبالي لما ستؤول له الأوضاع في العراق ، حتى وأن كلّف ذلك البلدين كثيراً ، لذا وبعد جهد جهيد قرّر (مصعب) أن يصغي لي بامتعاض وتذمّر بعد الساعة الثامنة ولمدة نصف ساعة لا أكثر ، وبعد ذلك ينشغل هو بترتيب نفسه استعداداً للسهر خارج الدار ، بينما أنا ينتابني الحياء والخجل دائماً عندما يسألني عنه أبوه وكيفية استجابته للدرس ، وعن مدى استيعابه للمادّة الدراسية ، كان يبرز على محياي الاحمرار ، إلا أن هذا الاحمرار الذي يزين وجنتي لا يظهر واضحاً للعيان بسبب اسمرار خديّ ، أم (مصعب) هي

الأخرى لا يروق لها سوى استدعاء خبيرات التجميل لتملأ وجهها بالمساحيق التجميلية ، لا تشاهد وجهها لكنّك ما أن تنظر لها حتّى ترى لوحة لفنان تشكيلي يخلط عليها الألوان كيفما يشاء ، تحبّ الزينة واللبس القصير ، عريضة الخصر ، لا تمتّ للجمالِ بصلة ، كانت تتابع ولدها عن كثب ، وإذا اقترب وقت الامتحانات تذهب للمدرسة ليكون المدرّس المسكين هو الضحية ، فالمدرّس شاء أم أبى فـ (مصعب) ناجح لا محال ، وبعد الساعة العاشرة يذهب (مصعب) لأصدقائه ولا يعود إلا بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وفي بعض الأحيان عند الثانية بعد منتصف الليل وفي ليلة الجمعة لا يأتي إلا عند الرابعة صباحاً.

وأذكر ذات مرة صحبني معه في إحدى الحفلات التي تقام في قاعات الفنادق الكبيرة ، بعد أن يتّصل بأصدقائه عبر الهاتف الأرضي ، يتّفق معهم لينتظروه في مكانٍ معين ، كان يستقلّ السيارة بمفرده دائماً ، إلا أني كنت أنا مدعواً من قبله لحضور هذه الحفلة ، وما أن وصلنا إلى نقطة تقاطع أحد الشوارع حتى رأيت شابّين تقودهما أرجلهم نحونا مسرعين ؛ فسألته عنهم ، قال : انهم صديقاي اللذان حدّثتك عنهما ، كان الشابّان متقاربين من حيث المظهر الخارجي فهما نحيفان كجسمي ، إلا أنهما يمتازان بالسذاجة والثرثرة طوال الطريق حتى وصلنا إلى باحة الفندق الذي لم أشاهد مثله مدى حياتي ، فقاعات الرقص تضجّ وتعجّ بالنساء اللائي يرتدين ملابس الرقص الشرقي ، لم أشاهد أروع وأجمل من تلك الملابس التي تتزين بها تلك الراقصات ، فصدورهنّ شاخصة ترقب الأنظار من بعيد كالجبل الشامخ ، الشعر الأسود يتدلّى كلّيلٍ حالك ، يتمايل فوق كتفيها ، تزيّن صدورهنّ قلادة ذهبية تتشابك مع الرقبة البيضاء تشابك العاشق لمعشوقته إلى أن تستقرّ تلك القلادة أعلى ساقية النهدين ، تقترب إحداهنّ نحو الطاولة التي نجلس عليها ، وتجلس بجسمها المليء ولحمها المكتظ بالبياض كغاوية بين يدي (مصعب) ويقوم هو بحركة خبيثة منه ، يخرجُ من جيبه بعض النقود الورقية ليكشف عن صدرها

ويداعب حلمتيها اللتين تطوقانهما هالة شقراء ؛ ليضع النقود بين ساقية نهديها، وبعد أن يصل إلى مبتغاه حيث غاية السُكْر ، يعربد ويهذي ، وفي بعض الأحيان يخْرجُ مسدسهُ من علبة جلدية مربوطة بحزامه ؛ ليطلق عيارات نارية في الهواء الطلق ، وبعد أن يصحو من ثمالته يصحب إحدى الفتيات إلى غرفة من غرف الفندق ؛ التي تكون في الطوابق العليا شبه صامتة.
الدنيا تصفّقُ بيديها لهم ، أما نحن فنفضّل السكوت والنظر بأمِّ أعيننا خوفاً على أنفسنا ، لأنّي لا أكاد أجلس قبالته دائماً فعندما يأخذ الخمر محلّه من عقله يطلقُ عياراته بأي اتّجاه يحلو له، يوجّه هذه الرصاصات المتدفّقة من فوهة مسدّسه لتخترق زجاج القاعة وترعب أكثر الجالسين.
تخرّجَ (مصعب) من الإعدادية وتدرّج في المراحل الأولى من الكلّية العسكرية ولطالما كان والده يأمل أن يراه ضابطاً في الجيش العراقي ، كان (مصعب) كلّما يكبر ، يكبرُ معه استهتاره ويزداد بشكلّ لا يطاق ، وقبل أن يتخرّج من كلّيته بسنة واحدة ، أرسلتْ لي رسالة من أهلي في مصر ، يلحّون عليّ المجيء إلى مصر ، جنيتُ مالاً كثيراً ، وودَدتُ لو بقيت أكثر في العراق ، البلد الجميل بكلّ ما يحويه ، لكنّ أمي المريضة وإخوتي وأخواتي أصرّوا عليّ بالمجيء ، كون أمّي تريدُ أن تراني قبل وفاتها ، فهي مشلولة والمرض ينخر عظمها ، وبدأت تزداد سوءاً يوماً بعد آخر ، لذا ودّعت العائلة الكريمة التي قضيتُ معها ثلاث سنين ، ودّعتُ (مصعب) وحفلاته الماجنة ، ودّعت أمّه ومساحيقها ، ودّعت سيدي الذي لم أشاهده كثيراً ، عدتُ حاملاً حقيبتي التي ملأتها هدايا لعائلتي ولأمي ، حاملاً في صدري قصصاً لم يشأ أحد أن يطلّع عليها ، وما أن وصلت إلى القاهرة حتى رأيتها بحلّتها المكتظّة بالسكّان ، وشوارعها المزدحمة بالمركبات ، طرقت باب داري لأفاجأ بنبأ وفاة والدتي ، التي فارقت هذه الدنيا المبتذلة التي لا نجني منها سوى التعب والذلّ، صُدِمتُ وبكيتُ ، كم كانت أمي تشتاق لرؤيتي وكم كنت أنا أبادلها هذا الاشتياق ، لأنني لم أحقّق رغبتها حتى في لحظة وئيدة كانت تشتاق لي بها ، لذا قرّرتُ

عدم العودة مرة أخرى لأكون إلى جوار إخوتي الخمسة الذين أكبرهم سناً ، واستثمرتُ الأموال التي حصلتُ عليها من عملي في العراق بمشروع عمل في مدينة الإسكندرية وبقيت أعمل حتّى دخول القوّات العسكرية الأمريكية، فعملت بصفة مترجم عند قوّاتكم العسكرية.
كان (رفعت) يميل إلى رجالات الدولة العراقية السابقة ميلاً كبيراً ، يتحدّث دائماً عن الرئيس العراقي السابق (صدام) وأيقنتُ بأنه يحبّه بل يعشقه ، لأن الرئيس السابق فضّلهم وأحبهم وأغدق عليهم العطايا ، كان يروي لي الكثير من الحكايات والقصص التي عاشها وبالتحديد مع رجالات الدولة ، على الدوام كان يحكي لي عن خروقات تلك الأجهزة القمعية التي كانت تقتات على دماء الفقراء المطالبين بالتغيير والرافضين لحكمه ، أطلعني على بعض الأدلة التي تثبت باليقين القاطع أنه كان ناقماً من شعبٍ يحسبُ له ألف حساب ، كانت الأرض ملغومة بجثث الأبطال الذين كان يخشاهم الرئيس وتخشاهم السلطة وتخاف منهم أعواد الكراسي التي لا تريد للحقّ أن ينتصر على الباطل ، كل رجال الشعب العراقي يزجّون في المعارك الطاحنة وقتها بين العراق وإيران في الثمانينات.
استهداف قواتنا العسكرية في الشوارع المكتظّة بالغاضبين والثائرين وفي المناطق الشعبية التي لا تودُّ رؤيتنا في أزقّتهم الضيّقة ، شكّل خطراً جسيماً علينا ، وهذا ما حدا بأغلب المترجمين العرب أن يرحلوا إلا القليل وعلى إثر الأوضاع تلك فقد قدّم (رفعت) استقالته وحزم أمتعته للرحيل متوجّهاً صوب مصر ، الأمر الذي جعلنا نتوجّه إلى المترجمين العراقيين فكان (جاسم) البديل الناجح عن (رفعت) لأنه يتقن اللغة الانكلّيزية لكنّه لم يكن أفضل من (رفعت) ، يمتاز (جاسم) بسمرة بشرته ، عينيه الحمراوين ، سعة جسده ، امتلاء بطنه والتصاق حاجبيه عند منتصف أعلى أنفه ، حاصل على شهادته من جامعة بغداد ، ذكيٌ جداً يعطي تفسيراً في أغلب الأحيان ، أشبه بالدقيق والواضح كونه يعرف تماماً نفسية مجتمعه ، الذي هو أحد أفراده، فكنّا معه أقرب

للاطمئنان ، على اعتبار معرفة النسيج المكوّن للمناطق الشعبية ، ويعرف التعامل معهم.
ثمة اختلاف كبير بين (رفعت) و (جاسم)... سابقاً كانت مركباتنا العسكرية تفرض النظام فوق الإسفلت الذي تنبعث منه أشعّة حرارية ساخنة تلهب من يسير عليها.
سابقاً.. كانت قواتنا تحترم الطرقات والمارّة ، نسير على وفق ما يقتضيه ويمليه علينا النظام ، لأننا نحن أوّل من أسّس أساس الديمقراطية والنظام ، إلا أنّا بعد استبدال (رفعت) بـ (جاسم) ، اضمحلّت لدينا كل الأساسيات المكوّنة للنظام والديمقراطية ، فعندما تكون الطرقات مكتظّة بالمركبات المدنية، فإننا نسير بالاتّجاه الآخر وبعكس حركة السيارات والمركبات الأخرى ، انتهكنا حرمة الطرقات ، زرعنا الخوف عند كلّ من يجلس خلف مقود سيارته ، فالقطعة الحديدية العملاقة التي توضع أمام همراتنا العسكرية- كفيلة- عند الاصطدام بتدمير المركبات المدنية ، وما أن نشعر أننا في ضيق من أمرنا حتى نضع مقدّمة عرباتنا على مؤخّرة عرباتهم المدنية وبالتالي يشعر السائق المسكين بأن سيارته من الخلف قد تهشّمت وتحطّمت ، وإذا استمرّ بالسير أمامنا فإن مركبته تتحطّم كلّياً ، وهذا العمل سَهَّلَ علينا الكثير عند المسير بالطرقات التي كنّا في بعض الأحيان نُضطرّ إلى تهشيم الأرصفة التي تقبع بصمت على حافة الطريق، فالفرق شاسع وكبير بينهما ، المعلومات التي تصل لنا عبر (جاسم) معلومات قيمة ومهمّة في تنقّلنا داخل شوارع العاصمة ، وكنّا باستمرار نستبدل المترجمين بين الفينة والفينة، تقوم اللجنة المشرفة على العمليات العسكرية بين فترة وأخرى باستبدال وتحريك القطعات الأخرى ، وقد تحرّكت كتيبتنا من العاصمة بغداد ؛ لتوكلّ لها حماية أحد السجون الكبيرة التي تقع غرب بغداد ويدعى بـ (سجن أبي غريب) وهو السجن الذي أثار شجوناً كبرى ، فكانت لي في سجن أبي غريب حكايات شتّى ، رأيتُ ما أذهل مخيّلتي هناك ، حقوق تنتهك ، وإبادة جماعية لا أخلاقية...

هناك حيث جدران (أبو غريب) ، الجدران تتكلّم بصمت ، الكتابات تملأها ، النشرات الجدارية ، الذكريات ، خواطر وأشعار وقصص شتّى ، الجدران بمفردها رواية ، التواريخ التي ترصّع تلك الجدران تعود إلى الثمانينيات والتسعينيات ، جدرانٌ تتحدّث عن ألم السنين وتجسّد سنوات المحنة ، شعبٌ يفتك به وتنتهك حرماته ، وتقطرُ دماه فوق أكوام الرماد ، الكلُّ منّا ينتابه الفضول وحبّ الاستطلاع وهو يتدفّق شوقاً ويتطلّع بشغفٍ كبير صوب تلك الجدران ، فهي كالفم الممتلئ بالحكايات ، قهقهة الضحكاتٍ تئنّ فوق رفوف الألم ، وبعد أن تعرّفت على الأفراد المنتسبين في هذا السجن الكبير ، تجوّلتُ بين أروقته ومن طريف المصادفة أني تعرّفتُ على صديقي الذي كان يرافقني الطريق جوّاً وصولاً حيث إحدى الجمهوريات العربية.

(سيجال) هو من حدّثني في تلك اللحظة الهرمة التي لا أوَدُّ أن أتذكّرها فهي تذكّرني بلحظات الوداع المختنقة بعبراتها وسيل الدموع وانهمارها كرشقات المطر ، فـ (سيجال) سجلّ مكشوف بالنسبة لي – منذ زمن ليس بالبعيد – هذه الجدران المليئة بذكريات صامته كفيلة بأن ينطقها (سيجال) لأنه يمتلك من الحقدِ ما لايطاق ، وكونه ناقماً على بني البشر، وهو بالتأكيد ما أوصله إليه مجتمعه الذي انتقم منه بعد وفاة والديه لأنه تفوّق على أقرانه وحُفّ بمتابعة أبوية جيّدة تفوح منها رائحة الحنان والعطف الأبوي الذي لا يضاهيه عطف آخر ، إلا أنه بعد مقتلهما أصبح فريسة سهلة وقع في شباك العناكب السامّة الناقمة من كلّ ما هو جميل، وهذا بالتأكيد ناجم عن الأفراد المتفسّخة أخلاقهم والمنحلّة بين المجتمعات الأخرى.

يبدو أن (سيجال) هذا هو من سيكمل المشوار بعد (ليندي رلينج) التي قطعَتْ أوصال البيت الأبيض بفضيحتها وفعلتها الشنعاء ، أنا لا أتحدّث عن الفساد الأخلاقي ، فليس ثمة مشكلّة في ذلك ، إلا أنك تغتصب وبقوة من دون رضا الآخر ما هي إلا انتهاكات لحقوق الآخرين ، أو أنك تتلذّذُ بمشاهدة سوءة

الآخرين وتحت تهديد السلاح ، فهذا ذنب لا يغفر وهو انتهاك شرعيّ صريح وواضح لكلّ مبادئ حقوق الإنسان.
ليس المانع من مضاجعة شخص تحبّه بمحض إرادته وملء عزيمتك ، لكن أن تضاجعَ شخصاً تحت وطأة السلاح ، فهي جريمة نكراء لا تغتفر أبداً ، إلا أن من يعاني مرضاً نفسياً بالكاد تروق له أساليب التعذيب الجنسية وبلهجة وحشية ، دنوت من (سيجال) شيئاً فشيئاً حتى وقفت أمامه ، تفرّستُ جيداً بوجهه وملامحه التي تقطرُ سماً زعافاً ، وتمتلئ حدقات عينيه بالحقد الذي سلّطه على كلّ أولئك الذين يقبعون خلف الجدران الصامته وبوجود (ليندي رلينج) التي كانت إحدى المقوّمات التي تساعد (سيجال) على تفريغ حقده على أولئك المساكين ، وجنتاه الحمراوان وفمه تنبع من ثناياه رائحة الخمر ، فهو عطره المفضّل الذي تفوح منه رائحة جسده.
- أ تعرفني ؟.
- كلا ، لا أعتقد أني قد رمقت هذا الوجه الذي أحرقته حرارة الشمس ، ولا أتصوّر أني قد افترشت في يومٍ من الأيام هذا الجسد البالي.
- أ حقاً لم تتعرّف عليّ ، ولم تكن في يومٍ ما ضيفاً ثقيلاً ، ضايقني بجسده على متن الطائرة التي كانت تقلّنا وصولاً إلى إحدى الجمهوريات العربية؟.
استدار بعينيه نحو الماضي البعيد ، وغاص في صمتٍ عميق ، واضعاً يده فوق عينيه ، يفرغُ عصارة الذكريات براحة يده ، وفجأةً... زال كلّ شيء، وارتسمت فوق محياه ابتسامة خفيفة.
- نعم لقد تذكرتُ جيداً ، لعلك (جنيت).
- أجل فأنا هي.
- أحقا هي أنت.. فأين وجهك النَظِرْ ؟ أين عيناك اللتان تنبضان بالأمل؟ أين فمك الذي تتأوهُ منه آيات الحبّ؟ أين صدرك المشدود المليء كالطود.

- يا سيجال.. الخوف تسلّق إلى أوصالي ، تسلّق العناكب فوق الجدران ، تسلّق الأبطال فوق قممِ الجبال ، يقطّعني إلى أجزاء متناثرة تحلّق في سماء بلادي ، أشبه بالنوارسِ التي تزيّن الشواطئ المطلّة على مدينتي.
بعد أن أصبحت إحدى العناصر المشرفة على السجن، كنت أراقب عن كثب كل العناصر المسيطرة والمشرفة على السجن ، كان (سيجال) يلهو بتعذيبه السجناء ، واطلعتُ على قضايا شتى ، فهو صديق حميم لـ (ليندي رلينج)، حيث أطلعني على الكثير من الحكايات والمفارقات التي حدثت في هذا السجن، كنت أختلي به في إحدى الغرف المطلّة على قاعة من قاعاته ، وفي ليلة هادئة يستسلم بها السجناء للنوم ، أي بعد أن تجوب كلابنا البوليسية أروقة السجن تبحثُ عن الأجساد العارية ، يقودها جنود ومجنّدات يتلذّذون برؤية تلك الأجساد السمراء التي تزيّنها زوائدها اللحمية وبالنظر إلى تلك العورات التي تنكمش خجلاً ، بل وترى الخجل واضحاً جدّاً وهم يخفون بأيديهم زوائدهم المسكينة.
بالقرب مني.. يجلس سيجال ، يحدّثني عما كان يدور في الأروقة التي تضمّ بين ثناياها مجاميع بشرية كثيرة ، كان سيجال يتأوّه ويرسل تنهّدات حرّى يطلقها بين الفينة والفينة على صديقته الحميمة التي ودّعت السجن بتلك الفضيحة التي أسقطت بها عروش البيت الأبيض الذي لطالما حَلُمَ بالإمبراطورية العظمى والهيمنة الدكتاتورية على كلّ شعوب العالم ، وفي لحظة صمت.. كان وجهه خالياً من أيّ تعبير وعيناه واقفتان بلا أدنى حركة كأنهما واقفتان وقفة حدادٍ ضمن مراسيم جنائزية مهيبة ، كنتُ أرقبُ هذه الملامح الخاوية الخالية من التعابير بوجهٍ كئيب وأمل ضئيل ، وأسترسل في لحظة انتباه قائلا:
- عزيزتي جنيت... قد أكون أفرغت حقدي على أولئك المساكين، إلا أني اشعر بالندم الشديد لما فعلته مع أولئك المساجين ، فقد كانت لي أحداث كثيرة داخل السجن.

في يوم من الأيام ، كنتُ أتجوّل بعد الظهر في أروقة السجن وانساب إلى مسمعي ضجيجٌ خفيّ وكلّمات بذيئة تتفوّهُ بها صديقتي تلك ، على الرغم من أن السجين يقف أمامها كالتمثال الجامد الخالي من الحياة ، لا يفهم ما تقول... لعباراتها تلك نشوة خاصّة يستطيب لها كلّ رجل ، إلا أنّ هذا الرجل الواقف أمامها لا يفقه ما تقول ، وهي تهذي بعبارتها التأوّهية ، وبعد أن يمزّق أوصالها صمته بعدم مبالاته لها أو الاكتراث بها ، تفكّرُ في طريق آخر أقرب إلى فهمه ، تداعب أزرارها العليا وتفكّها بأناملها الناعمة، يتساقط القسم الأيمن من القميص بهدوء، تساقط الثلج فوق ربوة ثلجية ، ويتهاوى القسم الأيسر منه كالزهرة التي تذبل ببطء ، يستتر خلف تلك القطعة من القماش ما كان أعظم وأدهى ، تسدل الستار عن صدرها لتكشف عن ثديين مليئين بالحياة ، ينبضان بالدفء والحنان ، يشبه أحدهما الآخر كتوأمين ، وبصدرها العاري وحلمتيها النظرتين ، تستقبل عينيه الشاحبتين المرهقتين ؛ لاستدراجه حيث قعر الرذيلة ، إلا أن خواء جسده يمنعه من ذلك ، تزداد إثارة أكثر فأكثر بفكّ حزامها الذي يطوّق خصرها وفق طرق الإثارة التي تمارسها إناثٌ لها مكانتها في إيجاد هذا الدور المثير التي تبدع بها نساء ولاية (بنسلفانيا) لأنها مدينة الأضواء والرقص والإثارة.

يتهاوى بنطالها نحو الأسفل لتكشف عن جسدها الأبيض ولحمها البض ولباسها المائل إلى لون الثلج ، إذ تذكّرني بالليالي الثلجية الشديدة البرودة ، أشتاق إلى حرارة الجسد ، بدنوّ إحداهما من الآخر.

يقف هو موقف المتفرّج اللامبالي من دون أن تثير في نفسه شيئاً أو تحرّك في دواخله تغيرات فسيولوجية يمكن أن يستقريها المشاهد على تقاسيم وجهه.

أعتقد أن صديقتي هذه ذكية جدّاً من حيث استدراجه تدريجياً ابتداءً من أعلى صدرها وانتهاء بأخمص قدمها ، إلا أنها لا تدري استدرجت جثة خالية تماماً من الروح ، وأعتقد أنها لو استدرجت حيواناً لم تدركه الشهوة بعد للبّى لها مسرعاً وبلا أدنى شكّ ، وأقف أنا بكامرتي التي لم تفارقني من وراء

حجاب، أصوّر كلّ ذلك من غير أن تدري أو حتّى تشعر بذلك ، فقد استقطبتها غريزتها أن تفعل ما لا تعلم وأن تفقد عقلها أمام اشتهاءاتها الفضّة الغليظة التي كانت تعاقب بها أولئك السجناء بلا أدنى رحمة ، أقف أنا مذهولاً بمراقبتي لها ، وتقف هي منتصبة شامخة بذاك المنظر ، أقف أنا ولعاب اشتهائي يسيلُ على نحوٍ أفقد بها السيطرة على نفسي ، وتقفُ هي تَدْعَكُ بأطراف قطعة اللحم المنبعثة من جوف فمها باطن يديها ، وأقف أنا أهدهدُ موضع إثارتي بأناملي ، تقفُ هي تتلوّى كأفعى خبيثة تسعى لاقتناص فريستها ، فكلّما تنتصب شامخة بإثارتها تلك أزدادُ شغفاً من الدنوّ منها وألعن تلك الجثّة الهامدة التي لم تشأ أن تحرّك ساكناً ، وبعد أن عجزتْ بكلّ فنونها في استدراج الأنفس الضعيفة التي تقع في شباكها والتي لا تستطيع المقاومة أمام تلك الأجساد الناصعة البياض.

أعلنت ثورتها بالدنوّ منه.. أمسكت بيدها قميصه الخاوي بينما حوّل وجهه للجهة الأخرى ولم يستسلم لأساليبها وإغراءاتها طرفة عين ، كان مكتوف الأيدي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، إلا أنه لم يستسلم لها ، أمسكت بكلّتا يديها..وبقوة واجهة قميصه الأمامي ، وبعد أن بدأت ملامح الغضب تفترس وجهها قدّت قميصه بقوّة شديدة أحالته إلى وصلتين لا تشبه الأولى الثانية منها ، وبذلك فقدت سرّ إثارتها أمام جبروت هذا الرجل الذي لم يأبه بها وبأساليبها التي من خلالها ترغم الأنوف لمعرفة تضاريس جسدها الذي يتوق له كلّ عشّاق النشوة ، تملّكها غضبٌ لا يقاوم ورمت بأطراف قميصه إلى زاوية من زوايا السجن ، وبعدها لجأت إلى بنطاله الذي جرّدتهُ منه وأصبح عارياً تماماً من أية قطعة قماش تستره لكنه كان مليئاً تماماً بالحياء ، يرتدي الحياء وتحمرّ وجنتاه وتنكمش عورته خجلاً، بينما هي تزداد استهتاراً بمداعبة تلك الجثّة لاستحصال مرادها ومناها منه ، إلا أنها لو استفادت من جثة ميتة كان أفضل لها من الاستفادة من الجثة التي تنبض بها روح الإخلاص وتشعُّ بالنظافةِ والإيمان ، ترغمه رغماً عنه إلا أنه لا يستجيب لها ولا لرغباتها

الساذجة ، وبعد أن يشعر بالرجولة تسري في جسده ؛ يركلّها برجله لئلا يدنو أو يحاول الاقتراب منها ، وما يكون جوابها إلا أن تبصق بوجهه وتوجّه صفعتها إلى الوجنتين الخجلتين.
لذا كنت أرقبها دائماً لأنها موضع إثارتي ، ولقد أرشفتُ لها الكثير من مقاطع الفيديو ، كانت تلك المقاطع تستحقّ الأرشفة وقد أودعتها حاسوبي المحمول فتلك المقاطع قصصاً لا يمكن أن تنسى، لأنها تمتاز بالمتعة والإثارة.
بعد أن تفرّغتُ تماماً وأصبحت ضمن اللجنة المشرفة على السجن ، وبعد أن تخلّصتُ من الخروج بتلك المركبات العسكرية التي تثير الاشمئزاز والخوف في نفوس الناس ، كما تثير الخوف لنا نحن أيضاً ، لأنها كانت مستهدفة بالعبوات التي تحوّل المركبة إلى قطعٍ من الحديد المتناثر الذي يتشظّى سابحاً في الفضاء وقد يمزّق بطريقه من يصادفه ، وبعد أن تخلّصتُ من أولئك الذين يخرجون لنا بين الحين والآخر ، يتبادلون معنا أطراف الرصاص ، وتتساقط الأرواح بيننا كلّعبة الشطرنج يقتلُ فيها الجنديُّ الجنديَّ الآخر وتسقطُ القلاع تلو القلاع ويحطّم الملك بكلّمةٍ ساذجة تدعى (كش) يسقط فيها الوزير ويتبعه الملك ، وقبل هذا وذاك يتساقط الأبرياء ، من لا حول لهم ولا قوة ، أرواح تزهق وأخرى يسيلُ دمها على قارعة الطريق ، فالرصاص لا يفرّق بين المرء، بين الطفل والشيخ بين المرأة والرجل ، أليس من حقهم أن يدافعوا عن أنفسهم؟، فلو حصل العكس ، أي لو عبروا البحار والمحيطات ووطئوا أرض ولايتي ومدينتي ، وانتهكوا تلك الحرمات وما راعوا العادات والتقاليد ، لفعلنا أكثر من ذلك.
فنحن لم نأت لتحريرهم كما زعم قادة وساسة واشنطن ، أنا أيضاً كنت من المموّهين والمغرّر بهم ، كنت أحسب أننا جئنا لخلاص شعب كتم على أنفاسه دكتاتور وتشبّثت مخالبه بالأرضين السبع ، إلا أن نوايا البيت الأبيض كانت غير ذلك ، فلها مصالحها الشخصية ، من حيث استحواذها على آبار النفط ، وممتلكات دولة غنية جداً من حيث المقدرات والخيرات وأرصدة لمغفلٍ منعها عن

شعبه ، بل عمل على تجويعه طيلة فترة التسعينيات وقتله طوال الثمانينيات، ليجد أولئك الساسة الخزنة التي يغرفون منها والمائدة التي لا تنضب ، وكأنها المائدة التي أنزلت من السماء على الحواريين، ولو اجتمع عليها الأنس والجن ما نفدت أبدا.

لا أدري من المغفّل بنظري ، هل الحكومة العراقية؟ أم حكومة البيت الأبيض؟ ، لا أعتقد أن حكومة البيت الأبيض تمتاز بالغفلة والسذاجة إلى هذا الحدّ ، فهي الآن تحتلّ عرش دولة أرهقت كلّ دول المنطقة بجبروتها وطغيانها وقوّتها فهي بعد أن احتلّت دولة الكويت بجيشها الجرّار ونملها الأحمر الذين يتقدّمون نحو الأمام لا يأبهون بالخوف ولا يهابون الموت، يتساقطون تساقط الثمار وقت قطافها ، تستطيع بكلّ تلك القوة والهيبة من رجالاتها الجرارة أن تحتل دول المنطقة وتسقط عروشها بلا أدنى شكّ ، لكن الحكومة العراقية كانت مغفلة إلى حدّ الثمالة بتحدّيها إمبراطورية البيت الأبيض ، البيت الذي يدير العالم من خلف الكواليس ، كالمخرج المسرحي الذي يدير المسرحية من خلف أستار المسرح.

دائما ما كان يراودني سؤال ، هل للمقاومة الحقّ في أن تتصدّى لنا؟ لا أعتقد أن هناك شخصاً عاقلاً يجيب على هذا السؤال بكلا ، لأن المقاومة حقاً مشروعاً ، بعد أن كُشفت نوايانا داخل العراق ومصالحنا والهيمنة على المقدّرات ، أدركت أنّ لهم الحقّ ، بل كلّ الحقّ في مقاومتنا ، إلا أن أغلب الجنود لا يرغبون في البقاء داخل العراق ، لأنّهم يعلمون تماماً أنّ من حقّ العراقيّين العيش في وطنهم ، لأنّ العراق ملكهم وحدهم، لا يجوز أن ننازعهم فيه ، إلا أن حكومتنا هي الأخرى فرضت علينا البقاء والاستمرار في العراق بحجّة تحقيق النصر، فهي مازالت تستغفلنا أيضاً بعبارة (تحرير العراق).

العراقُ بلدٌ جميل ولأناسهم الطيبين نكهة خاصة التمستها عند تجوالي بين الأزقّة الفقيرة والأحياء الغنية ، فشعب كهذا لا يستحقّ أن يهان أو يذلّ ، تعاطفت معهم منذ أن عالجني الحاجّ أمين عندما كنت مصابة وابنته حنان ،

وذاك المضمّد باسم الذي مازالت لمساته تغرقني بالعطف والحنان، وعاهدت نفسي أن لا أضغط على زناد سلاحي حتى ولو كلّفني ذلك حياتي.
في كلّ يوم خميس من كلّ أسبوع موعد للطبيبة (شيلا) تَطّلعُ فيه على أحوال السجناء ، تُقدّم لهم النصح والإرشاد، وتجري لهم فحوصات شتّى ، فالفحوصات الطبية كفيلة بأن تلاحق المرض أينما وجد في جسد السجين الراقد في السجن وبالتالي القضاء عليه ، لكن ما زاد انتباهي أنّ شخصاً ما، من السجناء يساقُ كلّ ليلة بأيدي جنودنا إلى غرفة الطبيبة (شيلا) بعد منتصف الليل ، التفتّ للأمر في بادئه، إلا أن تكرار الوقت ونفس السجين لا يمكن أن تكون مصادفة – أيّ بمحض الصدفة - لكن دُبّرتْ مكيدة أو بُيِّتَ أمرٌ ما ، فالمصادفة لا تتكرّر دائماً هكذا ، حفظتُ شكلّ السجين تماماً ، الذي يساق إلى غرفة الطبيبة ، شديدُ السُمْره ، ذو عينين واسعتين حمراوين، وجهه مدوّر ، وشاربه يتدلّى فوق فمه ، يغطّي شفته العليا، لحيته كثة يشوبها شعرٌ أبيض ، طويل القامة ، يمشي بتريّث وخطوات هادئة كبزوغ الفجر ، يرتدي ثوباً أبيض اللون، تعلوه من الأسفل بقعٌ رمادية تُدلل على عدم نظافته ، توافر في داخلي فضول في البحث عن السرّ الذي من أجله يُجلب هذا الشخصُ ليلاً بعد منتصفه.
في صباح اليوم التالي ، تجوّلتُ في أروقة السجن بحثاً عنه ، وفي قاعة من قاعات السجن وزاوية من زواياه المظلمة المعتمة ، وجدته منهكاً متعباً، وخارطة عينيه ترتسمان بحدود النُعَاس ، ملامحهُ أشبه بالخاوية ، وما إن اقتاده الجنود إلى غرفتي حتى حاولت أن أضع تفسيراً واضحاً لما يدور في أروقة هذا السجين اللعين ، كان المترجم فاغراً فاه منذ أن تفوّه ذو البشرة السمراء بكلماته الأولى ، واسترسل في حديثه قائلاً:
كنت ذات خميس أُعْرَضَ على الطبيبة لإجراء الفحوصات اللازمة وكنا نُرْغَم على خلع ملابسنا كلها ، بدعوى الفحوصات الطبية لكافّة أعضاء الجسد لكنّي لم أعلم أنّ هذه الطبيبة تُبَيّتُ أمراً من جرّاء هذه الفحوصات ، حيث يخلعُ كلّ

سجين ملابسه في غرفة قبل الدخول إلى غرفتها الخاصّة ، وما أن يدخل غرفتها حتى تجرى له فحوصات ، أعتقد أن كلّ الفحوصات التي تجريها لكلّ السجناء ليست سوى البحث عما تشتهيه وتوَدّ قضاء لياليها الحمراء معه ، دخلتُ غرفتها عارياً تماماً ، حتى أوراق الشجر الذي أخذ يطفق منها آدم ليواري سوءته ؛ ما وجدتها لأواري سوءتي ، وما أن دخلت عليها حتى وجدتها تجلس خلف منضدة كبيرة من الخشب الملمع ، كأنه مرآة يعكس جمال وجهها على تلك المنضدة، بشرتها البيضاء وعينيها الخضراوين ، شعرها الذهبي الذي يتدلّى على كتفيها كالماء المنهمر من أعلى الشلال وبفمها الذي يكتسب من جمال الورد لوناً له والذي يطرّزُ قبلات ملؤها الدفء والحنان ، وقفتُ مذهولاً أمام جمالها وبعورتي التي تنكمشُ خجلاً ، وأنا أعلمُ أن نظرات الفحول لجوامح ، أحسست أنها انبهرت بشيءٍ ، أيّ شيء ، لا أعلم ، لكنّها أشارت لي بيدها ، وتفوّهت بالانكليزية دلالة على استغرابها ، هذا ما استقريته من عينيها الجميلتين ، دنوتُ منها ، والحياءُ يملأ جسدي ، كنتُ أسير بخطى وئيدة على استحياء ، أمسكتْ بذراعي وشدّتني نحوها بقوة رجل... بيدها الأخرى عصا ناعمة ، توجّهت بها نحو قطعة لحمية خارجة عن جسدي ، داعبتها ، تفحّصتها جيداً ، وأمعنت النظر بها ، قلّبته ذات اليمين وذات الشمال ، تضعُ العصى أسفل عنقه كجلادٍ يدقُّ الأعناق على مصطبة خشبية ، تتساقط عندها الأرواح ، انْشدّ فمها قليلاً إلى الجانبين ، وأزاح فمها وجنتيها إلى الجانبين حتى تكورا وامتازا بحمرتيهما دلالة على الرضا ، ثم أعطتني بيدها حبتين لا تشبه إحداها الأخرى، فواحدة زرقاء اللون والأخرى حمراء ، وقالت لي: يجب أن تتناول هاتين الحبّتين عند الساعة الحادية عشرة ليلاً وتنام قبل أن تتناولها بساعتين ليستريح جسدك المتعب.

دوّنتْ على أثرها اسمي ورقم زنزانتي التي أقبع فيها منذ شهور ، ثم ضغطت على زرٍّ كان أمامها ، أصدر صفيراً أشبه بصفير العصافير عندما تجتمع على شجرة من شجار بساتيننا الخضراء ، نخرجُ على إثر هذه الزقزقة خارج

غرفة الطبيبة إلى الغرفة التي نخلع بها ملابسنا ، نرتديها ، ثم نكون برفقة مجموعة من الجنود ، لِنُوَدع الزنزانة ، لم أستطع النوم بحدود الساعة الثامنة أو حتّى التاسعة مساءً لأريح جسدي كما قالت لي الطبيبة ، وبعد تناول وجبة العشاء لم أستطع إغماض عينَيّ ، الأفكار تعشعش في رأسي لم أستطع تناول الوسادة بيدي كما كنت أنام في بيتي ، أضع رأسي على وسادتي أغطّ في نومٍ عميق وتحوم حولي أحلامي ، وعندما وقف رقّاصُ الساعة عند الحادية عشرة ليلاً ، أخرجتُ العلاج المتمثّلُ بالحبّتين وتناولتهما، بينما كنتُ أتّكئ على فراشي متأهّباً للنوم وفي الوقت الذي اتّفق فيه رقّاص الساعة مع رقّاص الثواني للوقوف معاً لإعلان منتصف الليل ، جاء جنديان إلى الزنزانة التي كنت موقوفاً بها ، وناديا باسمي، كنت أحسب نفسي كحذاء سندريلا عندما هربت وقت انتصاف الليل وتركته خلفها لتحيّر به الملك وحاشيته ، الوقت نفس الوقت ، ومن جاء يبحث عني في هذا الوقت المتأخّر من الليل ، هو نفس السبب الذي من خلاله أجهد الملك حاشيته في البحث عن صاحبة الحذاء التي سلبت قلبه ، وأشغلته في التفكير بها ، وقفتُ مرعوباً خائفاً ، لم يناديا أحداً غيري ، بدأ الشكّ يساورني ، إلا أني لا أملك سوى الاستسلام لقدري اللعين وحظّي العاثر علماً أني لم أفعل جريمة أسجن عليها سوى الاشتباه بي ، فأصحاب الوجوه الصفراء لا يعرفون العناد أو عدم تلبية ما يريدون ، اقتادوني إلى طريقٍ جديد لم أعهده من قبل ، ورأيت من خلف فتحات الأبواب أنها غرف نوم لضبّاطهم ومراتبهم العليا كونها تسلك طريقاً غير الطريق المؤدّي إلى السجن ، يمتاز الطريق بهدوئه وبين الفينة والفينة تسمع أصواتهم المتشابكة فيما بينها ، كمواء القطط ، انساب إلى مسمعي ثمة أصوات لموسيقى صاخبة ، أعتقد أنها تخرج من بعض الأسطوانات المسجّلة ، يتراقصون على أنغامها ويستشيطون باستهتارٍ كبير ، يتمايلون مع هذه الأنغام، تمايل المرأة عندما تسري بها روح الأنوثة.

وأنا أسير مع هذين الجنديين ، أحسست بقوة خيالية انسابت ودبّت في جسدي ، أصبحت على إثرها كالأسد الهائج والليث الغاضب ، الذي تكبّله سلاسل الصيّاد ، وفي لحظة ما، أحسست بتثاقل يسير ببطء في زائدتي اللحمية ، ودبيب كدبيب النمل يمزّقني يسري في عروقي ، إلا أن ما يمنعني من الإمساك بتلك الزائدة اللعينة ، هما يداي المكتوفتان واللتان تقيّدهما سلاسل الحديد وفوهات النار المتّجهة صوبي ، وما أن وصلت أحد الأبواب الخشبية حتى رأيت مكتوباً على الباب عبارة لا أفقهها ، كانت باللغة الانكلّيزية لا أعرف معناها، لكني أحفظ شكلّها تماماً ، كانت تلك الأحرف على ما أظنّ مجتمعة بالصورة الآتية (Dr.Shela) ، وقفت على هذا الباب ، موقف المنتظر لرحمة الجلاد ، وموقف المظلوم على باب الظالم ، دخل أحد الجنود الغرفة بعد أن طرق بابها ، ولازمني الآخر ملازمة فردية ، وبعد أن خرج هذا الجندي من الغرفة... فكّ قيودي التي كانت تطوّق معصميّ ، حرّكتُ أصابعي أحسستُ بقوة منقطعة النظير تفتك بجسدي وتؤهّلني لاقتلاع هذا الجدار ، فُتِحَ لي الباب وأدخلوني بمفردي إلى هذه الغرفة.

الغرفة نظيفةٌ جداً ، ذات جدران بيضاء.. بل تشعُّ نوراً ، وفي جدرانها الأربعة مصابيح فلورسنت ، تضفي على الجدران جمالية ونوراً أشد ضياء ، في ركنٍ من الأركان، طالعتني صورة جميلة ، لشابّة أجمل ، تشبه إلى حدٍّ كبير ، تلك الطبيبة الجميلة التي تشرف على فحوصاتنا الأسبوعية ، إلى أن ملامح وجهها كانت أصغر سناً ، تلبس قبعة تختلف تماماً عن القبعات التي يلبسها الجميع ؛ كونها قبعة لا تُلبس إلا في أوقات معينة من السنة ، ويلبسها الطلبة عند نهاية دراستهم، يتدلّى من أحد أطراف القبعة خيطٌ أحمر لا يكاد يصل إلى كتفيها ، ترتدي ثوباً أسود اللون وتمسكُ بيديها البيضاوين قطعة من الورق الملفوف، كأنها شهادة أو وثيقة تمنح للطلبة عند نهاية الدوام الرسميّ ، في الزاوية البعيدة من الغرفة سريرٌ من خشبٍ أبيض اللون ، مغطّى ومحلّى بفراشٍ أبيض في غاية الروعة والجمال ، الموسيقى الهادئة تزيّن المكان ،

تسري بالبدن مسرى الدم في العروق ، الغرفة تضجُّ بالهدوء والطمأنينة ، ازداد استغرابي لأني أنا فقط من يتجوّل في هذه الغرفة ، خَطَرَ ببالي سؤال ، ما هو سبب مجيئي إلى هنا؟ هل يعقل أنّهم سيستبدلون كلّ الزنزانات بغرفٍ كهذه ، تزاحمت في مخيلتي الكثير من الأسئلة التي تبحثُ عن أجوبة وتفاسير ، جلست على السرير الخشبيّ الأبيض لأبدّد التعب الذي أصاب رجلَيّ، تنهّدتُ تنهّدَ السقيم الذي أصابه داء لا يوجد له دواء، باتّجاهي تماماً باب خشبية تخترق الجدار أشبه بطعنة فيه.

بينما أتأمّل في ذلك الباب ، انفتح ببطء شديد ، صهيل الباب ينبجس رويداً رويداً ، أطلّتْ من خلفه حورية، لكنّي أعتقد أنّ هذا الوصف أضعف أنواع الوصف بل كانت شيئاً لا يوصف ، أجمل من حورية ، وأجزم بأنّها لم تكن من الأنس مطلقاً ، أطلّت بثغرها الباسم وشعرها الذهبّي وعينيها الخضراوين وفمها الورديّ وصدرها الشامخ وجسدها العاري ، لم أتمالك نفسي ، ارتعدتْ فرائصي ، كانت كاللبوة التي تدخل عرين الأسد ، عندها لا يمتلك الأسد السيطرة على نفسه ، بل يفقد عقله وتقفُ هالة الشعر التي تطوّق عنقه ، تفحّصتُ كلّ تفاصيل جسدها بعينيّ الحمراوين التي ما انفكّت تفارق خارطة جسدها ، ابتداء من أعلى قمّة في رأسها وحتّى نعومة كعبي رجليها المتورّدتين أشبه بزهرة ربيعية يفوح منها عطر الربيع ، لم أستطع أن أكبح جماح زائدتي اللحمية التي وجدتها منتصبة حدّ الثمالة ، فقد فاجأتني الطبيبة (شيلا) بهذا المنظر الغريب الذي لم أ ألْفه منها أو حتى أعتده ، كنتُ بادئ الأمر أحسب نفسي أعيش في حلم ؛ لأن الشيطان يراودني منتصف الليل ، أصحو من نومي مضمّخاً ببللٍ ورطوبة تضاف إلى رطوبة السجن تضايقني ، إمساكي بكلّتي يديّ بذاك الجسد الأبيض الكثّ ، مرور يدي الخشنة على ذلك الجسد الذي أبدع الخالق صنعه ، أشبه بنسيج من خيوط دودة القزّ ، لولا كلّ ذلك لأيقنت بأنني في حلم ، لا أدري أمعن النظر فيها لأشكر الله على إبداعه وتفنّنه في جمالها الذي لم أعهد مثله في حياتي ، أم أني أبرّر كلّ هذا لأجتاح

أسواراً لم اجتحها طوال حياتي ولولا هذا السجن لما وصلت لدكّ الحصن الذي تطوّقه جنود العفّة والنـزاهة ، قضيتُ معها ليلة حمراء ، ليلة أقرب للخيال ، أجادت الطبيبة (شيلا) فنون ليلتها ، وهذه الفنون ما عهدتها من زوجتي المسكينة الخالية تماماً من عذوبة الأنوثة والتي لا تعرف أضعف أنواع تلك الفنون ، سوى أنها كالناقة التي تُنيخ لراكبها وبالتالي ما على الراكب سوى امتطائها والامتثال لأمرها ، إذ قلت إنكن نساء تستحقن الكثير ، لا أكون قد بالغت في الأمر ، وعلمت فيما بعد أن هاتين الحبتين هنّ من المنشّطات التي تعطى للرجل ، يكون فيها سيّد الموقف ، يمتلك من الشراسة ما لا يمتلكها حتّى الأسد ، وها أنا أقضي معها كلّ ليلة كالمعتاد ، بل ليلة أفضل من أخرى ، وقبل حلول الفجر يصطحبني الجنديان إلى زنزانتي التي أقضي فيها وقتي متعباً منهكاً ، أقضي جُلّ وقتي في النوم لإحياء ليلتي ، التي لم أرَ في حياتي كهذه الليالي.

وما أن اصطحبني جنديان آخران وسلكت طريقاً آخر غير المعتاد ، وظننت بأني الليث المدلّل في عاصمة اللبوات ، لكن هيأتك تختلف عن هيئتها ، ومظهرك الخارجي بهذه الملابس الصفراء المرقّطة ، لم تكُ كمظهرها الخارجي ، بملابسها الداخلية الشفّافة ، ثمة اختلاف كبير بينكنّ أنتـنّ وشتّان بين الاثنتين.

في صباح يوم آخر طلبت مقابلة خاصّة مع الجنرال (ستيفن) وعلى انفراد للتباحث حول الأمور العامّة والقضايا المهمّة المتعلّقة بالسجن والسجناء ، وأطلعته على ما يدور ليلاً في غرفة الطبيبة (شيلا) لأن الذي تقترفه هذه الطبيبة منافياً لعادات وتقاليد هذا البلد ، إذ أصبحت لديّ رؤيا واضحة ونظرة ثاقبة على عاداتهم وتقاليدهم ومفهومهم الإسلامي ودينهم الذي يمتاز بالسماحة والدفاع عن حقوقهم ومطالبتهم بها تجعلني أمام أناس يستحقّون الحياة ، بل مساندتهم ومساعدتهم ؛ لأني أسكن بولاية يكثر بها المسلمون ، وها أنا أطلّع على الإسلام من خلالهم شيئاً فشيئاً ، وأمرت بنقل الطبيبة

(شيلا) إلى مكان آخر غير هذا وإصدار مرسوم عسكري بتوجيه توبيخ لها ، وعقوبتها هو نقلها من هذا السجن الذي يرزح تحت وطأته الكثير من المساكين والمشتبه بهم.
بعد مداولات مع القيادة العامة والجنرالات الكبرى ، أُصدر مرسوم يقضي بنقل الطبيبة (شيلا) إلى منطقة تقع جنوب بغداد تدعى (الرستمية) لما اقترفته من عملٍ يندى له جبين كلّ حُرّ ، ولئلا تُرهق البيت الأبيض بفعلتها الشنيعة أسوة بصديقتها (ليندي رلينج) التي أسقطت وهدّمت كلّ الأساسات والبرامج التي يسير وفقها رجالات البيت الأبيض وصنّاع السياسة في واشنطن ، في (الرستمية) مقرّ كبير لقوّاتنا العسكرية ، ينطلق منه الجنود والعسكر لرصد تحرّكات كلّ أولئك الذين يقصفون بصواريخهم المتواضعة مقرّاتنا التي تتضعضع بين الفينة والفينة ، من أولئك المتمرّدين الذين لا يرغبون ببقائنا على أراضيهم.
سعيتُ إثر ذلك وبكلّ ما أوتيتُ من قوة ، إلى تطهير هذا السجن من كلّ المجنّدات اللائي يستأنسن بتمتّعهنّ بالأجساد الخالية من قطع القماش التي تسترها ، ويستطيب لهنّ البقاء فترات أطول مع تلك الأجساد العارية.
وقت الفراغ أجلس أمام الحاسوب الشخصي لي، سابقاً كنت أقضي وقتي بشرب الخمرة التي تذهب العقل ؛ ليتسنّى لي نسيان الخوف ، ولأبتعد عن حياتي العسكرية التي لا يجني منها الفرد سوى القتل والدمار والخراب ، أما بعد أن عشت مدّة لا بأس بها داخل السجن توافرت لديّ بعض المعلومات عن النسيج المكوّن للحمة العراقية ، تأثّرت بهم بعض الشيء ، قد أظنّ أني أميل بين الحين والآخر لبعض معتقداتهم الدينية ، لأني أيقنت بأن من يحتسي الخمر ويضع الكأس بين شفتيه يرتشف عذب الشراب ، لكنّ المؤسف والمقزّز بذلك هو علّة ذهاب العقل، إذ يصبح المرء كالمخبولِ الذي لا يفقه شيئاً، يفقدُ الشخص شخصيته وهيبته ، لا أعتقد أيضاً أن شخصاً يمتاز بشخصيته يقال عنه طفل أو يتصرّف كطفل ، لكنّ من يكون ثملاً بالكاد يتصرّف أقبح من

طفل ، وهذا ما عهدته في حانة العم ديفيد عندما كنت أصل حدّ الثمالة وما كان يفعله بي من منكرات لست أحبّذها اليوم ، لكنّه كان يحصل على مراده ، وجودي في العراق قد يكون نعمة على الرغم من خطورة الوضع ؛ كوني تعلّمت بعض الشيء ، وسرت إلى قلبي بعض معتقداتهم ، وقتها ما عادت تطأ فمي زجاجة الخمرة.

عبر شبكة الانترنت وعن طريق الشات ، أتحدّث دوماً مع صديقي (لورانس) عمّا يدور في العراق من مخاطر ، أتحدّث له عن كلّ صغيرة وكبيرة ، أحدّثه بكلّ شيء ، لكنّ كلّ الأخبار التي تحصل مع قواتنا العسكرية من قتل ودمار وتفجير لمركباتنا بين منطقة وأخرى ، وعندما أحنّ لولايتي ، أرمي بمآسيّ ومآسي قواتنا العسكرية خلف ظهري وأنطلق للتحدّث مع (لورانس) عن الجمال عن أمي عن كلّ شيء جميل في ولايتي، أرى من خلال (لورانس) صور ولايتي التي كانت لا تفارقني ، دائماً أتحدّث له عن انتهاكات السجن الذي تعدّدت حكاياته بفضل مجنّداتنا المتعطّشات إلى عناق الرجال والبحث عن رجلٍ عربي ، تفوح منه رائحة الفحول، علّها تجد ضالتها وتجد مالم تجده في رجالنا الذين يمتازون ببشرتهم المائلة إلى الحمرة.

سألت (لورانس) عن أمي التي لم تفارقني طوال تواجدي في العراق ، دموعها هي الوسيلة الوحيدة لبقائي على قيد الحياة ، بل هي الدعم المعنويّ لبقائي حيّة ، أنْعَمُ بهذه الدنيا، حدّثني (لورانس) عن أمي التي تغيّرت ملامح وجهها وبالخصوص عندما بدأت الجنائز تصل عبر الطائرات إلى مطارات الولايات المتّحدة ، أما مرتزقتنا ، فلا يُولونَ الاهتمام أو الدعم الكبير لهم ، فقد كانوا يعبئون في أكياس قوية سوداء اللون ويحملون على متن الطائرات المروحية ويرمون في مستنقعات الأنهر العميقة ، التي تبتلع جثثهم المتعفّنة ، بعد أن يشدّ طرف الكيس بثقلٍ كبير ، وبذلك نكون قد تخلّصنا منهم ومن الجثث الكثيرة ، التي أرعبت عوائل المتطوّعين والمتطوّعات وحتّى لاتجيّر القضية لصالح أعداء البيت الأبيض والمعارضين لسياسته.

تقرّر توجيه الإعلام الكافي لمساندة القضية الأمريكية لأنها جاءت من أجل تحرير الشعب العراقي وتخليصه من طاغية كان جاثماً على صدر العراقيين طيلة مدّة حكمه المظلمة ، والشعب المسكين يقبعُ بين المطرقة والسندان ، الشعب الذي فقد أحلامه وكلّ تطلّعاته ، كان (لورانس) ينقل لي معاناة أمي، فَقَدْ ألَمَّ بها المرض ، كان يتراءى لها جثّتي ، فأنا ابنتها الوحيدة ، كانت دائماً تحدّث (لورانس) عن أحلامٍ تراودها على شكلّ كوابيس تأتيها أثناء منامها ، تخيفها ، وتجعل منها امرأة يأكلّها الخوف والريبة ، يساورها الشكّ في بقائي على قيد الحياة ، كانت تنتظر قدوم جثّتي على متن طائرة سوداء اللون رسم على جناحيها العلم الأمريكي ، لكن ما يخيفني هو النور الذي يخرج من الطائرة بين الحين والآخر ، هذا المنام أجهدني وأتعبني كما أجهد أمّي وأتعبها ، تبادلتُ مع أمّي الخوف والهلع ، فهي تخاف عليّ من القتل بعدما كثر القتل فينا ، وبعد أن كثرت التوابيت الخشبية التي تحمل بين دفتيها أجساداً خالية من أرواحها ، وأنا بدأت أخاف على أمّي من الخوف الذي يساورها وينساب لها ، أصيبت أمي إثر ذلك الخوف بنوبة قلبية شديدة جعلتها تفقدُ التركيز على كلّ شيء ، وأصيبتْ بهستيريا اسمها (جِينتْ).
كان (لورانس) يبعثُ لي برسائل عبر الماسنجر ، عندما لا أكون متواجدة ، أقرأها وأتذمّر مما ينقله لي ، ازداد قلقي وهمّي وقتلني تفكيرُ شديد ، ثمة أسئلة تبحث عن أجوبة في مخيلتي...
هل سأجد أمّي على قيد الحياة عندما أعود إلى مدينتي؟
هل سيقتلها الخوف عليّ؟
أصبت بالذبول الكبير وأنا أفكّر يومياً بوالدتي التي ينقل أخبارها لي (لورانس) ، حالة والدتي تسوء يوماً بعد آخر ، رغبتها الملحّة برؤيتي-قبل توديعها هذه الدنيا- كانت هذه الكلمات تزرع في نفسي الرعب والخوف ، لم أخف في يوم من الأيام على الرغم من أزيز الرصاص ودويّ الانفجارات وتفجير المركبات والأخطار التي تحيط بنا من كلّ صوب وجانب ، مثلما شعرت

بالخوف على أمي ، فلورانس دائماً ما ينقل لي معاناة أمي، التي أخذت مني مأخذاً كبيراً.
ما عادت تروق لي الدنيا ، وما عدتُ أرغب بالبقاء بعد اليوم في العراق ، لذا قرّرتُ العودة بأسرع وقت لأكون إلى جانب أمي التي قد تحتاجني أكثر من وجودي ومساعدتي للعراق والعراقيين.
في اليوم التالي وبعد أن صحوت من نومي ، أسرعت إلى برنامج الشات في حاسوبي المحمول لفتحه ومطالعة المسجات المتروكة لي ، لم يكن هناك مسج متروك لي ، إلا أنه برزت لي عبارة تقول أن هناك رسالة واردة عبر بريدي الالكتروني، فأسرعت إلى فتحها ، وقراءة ما بداخلها ، كانت الرسالة من (لورانس) ، وهي عبارة عن تقارير طبية ونفسية تشير إلى تردّي حالة والدتي الصحية ، أما التقرير النفسيّ فيوجب عليّ العودة إلى أحضان أمي كجزءٍ من العلاج ؛ لتحسّن حالتها الصحّية والنفسية ، لذا قدّمتُ هذه التقارير إلى الجنرال الأعلى المشرف على السجن ، الجنرال (كريس باك) ورفقتُ مع التقارير كتاباً يبيّن إنهاء خدماتي في العراق ؛ كون والدتي تمرّ بموقف مزرٍ ، ووجودي معها جزء من العلاج كما جاء في تقرير الطبيب النفسي.
بعد الاطلاع على التقارير الطبية تمّت الموافقة المبدئية من قبل الجنرال (كريس باك) ثم تمت إحالة الطلب والتقارير إلى الجنرال العام (جاك) للمصادقة عليه ، وبعد أسبوع أُصدِر مرسوم يقضي بتسريحي من الجيش طبقاً للتقارير المرفقة ، بعد مرور يومين حزمتُ حقائبي وأغراضي وكلّ مقتنياتي ، ودّعتُ (سيجال) والجنود الآخرين ، الذين رمقت بأعينهم الحنين إلى الوطن ، والرغبة الملحّة بالحياة ، والهروب من الجحيم والواقع المرير ، خلّفتُ ذكريات مؤلمة جداً إلا أنها بمرور الزمن كانت جميلة ورائعة فهي تحمل بين طياتها طعم الألم الذي لم نذقه عبر محطّات حياتنا باستثناء هذه المحطة التي غيّرت من حياتنا الشيء الكثير.

طيلة المدّة السابقة ومنذ أن أرسل لي كلّ التقارير ما عاد ليطلّ عليّ (لورانس) عبر برنامج الشات الذي يجلس عليه أغلب العشّاق للتحاور والتحادث والتغازل فيما بينهم.
عدم إرساله رسالة واحدة لي عبر البريد الالكتروني، وحتى عدم الجلوس عبر الشات أجّج مخاوفي ، الرسائل التي أرسلتها لـ(لورانس) لم يصلني منها أيّ رد ، لذا فالخوف تملّكني أكثر وأكثر.
خلعت ملابسي العكسرية وسلّمتهم سلاحي الشخصي (المسدّس والبندقية) ، ارتديت ملابسي الجميلة التي أتيت بها أوّل مرة خروجاً من مدينتي ووصولاً إلى دولة الكويت ، استقلّيت الحافلة المدنية التي تقلُّ كلّ الجنود الذاهبين إلى الولايات المتّحدة الأمريكية ؛ يُنقَلون على متن طائرة تَقُلُهُم إلى مدينة (السليمانية) ثم تنقُلُهُم الطائرة إلى مطار (واشنطن) ، بعدها يفترق الجنود ، يودّعُ بعضهم البعض الآخر، يشكرون الرب والسيد المسيح بعودتهم إلى أرض الوطن سالمين منعّمين أحياء وخلاصهم من مقبرة تهلك الحرث والنسل وتقتات على لحم البشر ، وتوجّهوا بالدعاء إلى الربّ... أن يعود الباقون إلى ذويهم لينعموا بالحياة والأمل المغمسِ بالغدِ المشرق ، بعد أن افترقنا ذهبتُ إلى منـزلي، الطريق نفس الطريق ، والأشجار نفسها، فالأشجار في الغابات مازالت تظلل دفتي الطريق ، رائحة البحر وتحليق النوارس كلّ شيء لم يتغير ، سوى نفسيّتي فقد تغيرت تماماً ، ما عادت زجاجة البيرة تطأ فمي ، منذ أن روّضت نفسي على تركها ، بعد أن رأيت بأمّ عيني التفاهة والنذالة التي وصلت إليها مجنّداتنا ، وبوجودي هناك تفهّمت عادات وتقاليد المجتمع العراقي ، بأناسه الطيبين ورغبتهم في الحياة ورفضهم لكلّ أنواع الظلم وتمرّد الظالمين ، أدركت أنّ الحياة لا تساوي شيئاً وأن المرء ما بين ليلة وضحاها يودّع هذه الدنيا حتى وإن لم يقتل في ساحة المعركة ، فسوف تموت وكلّ الناس يموتون ، وان وجودي في السجن أغناني بالكثير من العلوم والمعارف الإسلامية ، وهم يؤدّون بعض الحركات في أوقات معينة من اليوم ،

ويمسكون عن الطعام في شهر واحد من أشهر السنة ، وهذا ما يسمّى بالصيام وبالتحديد في شهر رمضان وهو من الأشهر العربية وغير معروف عندنا بالأشهر المتعارف عليها ، لكن إن أردت الحقّ فهو شهر يجعلك تعرف مدى معاناة الفقراء والمساكين الذين لا يجدون قوت يوم ، ولو أدرك العالم بأسره تلك الأدلّة والبراهين التي تثبت وجود الله وأن الخالق واحد ، وأن الدين عند الله هو الإسلام ، وان بعد نبينا المسيح عيسى ، النبي محمد ، وهذا ماجاء في الإنجيل ، إذ قال يأتي من بعدي نبي اسمه أحمد -هذا ما وجدته أيضاً في كتب المسلمين- لعاش هذا الكون في وئام ومحبة ، وما عادت بعد ذلك نظريات الذلّ والعبودية تطأ العالم بأجمعه ، ولانضوى الكون تحت راية واحدة... لكنّا نحتاج إلى عقول تدرك كلّ هذا.

وما أن أدركت الوصول إلى المنـزل حتى طالعت شخصاً من بعيد ، يجلس أمام الباب ، يتكئ عليه ، يُسبلُ رجليه، كنتُ أظن أنه متعب ، أو مريض ، أو صاحب حاجة ، اقتربت شيئاً فشيئاً ، ملامح ذاك الرجل ليست بالغريبة عليّ ، فقد اعتدت تلك الملامح من قبل ، وما أن اقتربت أكثر حتى رأيت (لورانس) بهيئة غريبة تماماً ، وجهه الأصفر الشاحب ، جسده الخاوي ، علامات البكاء تغزو عينيه ، أشبه برجلٍ ذليل ، اعتدت تلك الملامح لأني قضيتُ أياماً في بلد حتى أفراحهم ليست سوى حزن وبكاء ، وما إن رآني حتى لملم جسده الخاوي متّكئاً على أرضّية المنـزل واستقبلني بخطا وئيدة، وأدركت بأن صديقي المرح ، الذي ما انفكّ دوماً عن الابتسامة وما فارقه الفرح في يومٍ قطّ ، ملامح وجهه تخفي بين طياتها جرحاً عميقاً وحزناً شديداً ، ألقى بجسده الشاحب فوق جسدي وانفجرت عيناه بالدموع وانهمرتا انهماراً غزيراً ، انهمار المطر في ليل مظلم عاصف ، كنت أقف بجسدي لا أحرّك ساكناً وكانت يداي لا تتحرّكان وجسدي كالسعفة في مهبّ الريح ، بعد أن أفرغ دموعه على كتفيّ ، كنت أرقب ظهور أمّي التي لم تشأ الخروج وحتى معانقتي.

استغربتُ عدم خروجها ، إلا أن خوفاً شديداً انساب في جسدي في لحظة غريبة... أن أمي قد أدركها الرحيل قبل أن تراني وأراها ، انتفضت مسرعة نحو الباب وما إن دخلت صرخت بأعلى صوتي ، أدركت أن الصدى وحده هو من يردّ عليّ ، ملامح أمي ، وجهها ، ضحكتها ، بصماتها فوق الجدران ، غرفتها ، ملابسها ، رائحتها تزيّن كلّ شيء، كلّ المكان ، ودموعي التي لم تشأ الانقطاع إلا برؤية والدتي ، أو سماع أخبارها ، لا أظنّ بعد اليوم سأسمع خبراً لوالدتي أو سأحظى بحضنها الدافئ ولا قبلاتها التي تطرّز وجنتَيّ ، لم أرَ شخصها ، لكن رأيت رسمها ، أدركت أني سأعيش وحدي في هذا العالم الكبير ، وإن لكلّ جدار حكاية كما كانت جدران السجن تضجّ بالحكايات ، كانت أيضاً جدران منزلي تضجّ بحكايات أمي ، ذكرياتها ، كلّ شيء في هذا المنزل كان لأمي حكاية فيه.

عشتُ لشهورٍ متقوقعة على نفسي واتّجهت نحو الزهد في هذه الدنيا ، أصبحت الدنيا برمّتها كالسواد ، لبست السواد على والدتي التي ما رأيتها مذ أن رحلت عنها آخر مرّة، أشبه بالأرامل والثكالى اللائي ما عادت إحداهن تفرح بهذه الدنيا بعد فراق زوجها وسقوطه تحت نيراننا المتعطّشة لإزهاق الأرواح وفتكها.

الموروث العراقي ، العادات والتقاليد ، اكتسبتها تدريجياً خلال معاشرتي وملاحظاتي هناك في قعر العراق ، أدركت أن هذه الدنيا بزبرجها وزخرفها وجمالها لا تساوي شيئاً أمام لحظة صغيرة يصارع فيها الإنسان سكرة من سكرات الموت ، ليفقد بذلك سرّ رونقه وجماله المتمثّل بروحه الجميلة ، وبالتالي يحوّل ذاك الجسد الجميل إلى جيفة نتنة تقتات عليها ديدان الأرض ، هذا ما شاهدته من تلك الجثث المتعفّنة التي تملأ جانبي الطريق ، أو الذين نعثر عليهم في مكان بعيد ، حيث تغيب عنهم عيون الأمن والأمان.

ولايتي تمتاز بالمجمّعات الإسلامية التي يلجأ إليها المسلمون للسؤال والاستفسار في أمور دينهم وعمّا يستجدّ معهم في أمور دنياهم ، كون

المسلمين يشكّلون نسبة في مدينتي لا بأس بها ، من هناك ومن أحد المجمعات الإسلامية أعلنت إسلامي وارتديت الحجاب ، كبادرة أولى أو للإشهار بإسلامي ، لم أكن (جِنِيتْ) التي عهدني صديقي (لورانس) كما كنت سابقاً ، ما عادت تلك المناظر تعجبني ، حانة العم ديفيد، الرقص ، الطاولات التي تنشر فوقها زجاجات البيرة والويسكي ، تَمَتّعُ أحدنا بالآخر في لذّة اشتهاء الجسد للجسد، في لذّة احتراق الأرواح ، في لذّة انصهار الذات للذات، ما عاد كلّ ذلك يفيدني إلا ما أحلّ الله لي ، خيّرتُ (لورانس) بين طريقين إما أنا ، وأما البذخ وصخب الحياة والعودة لملذّات الدنيا وتفاهاتها.

بعد مرور أربع سنين تخرجتُ من جامعة (جون هوبكنز) في مدينتي بتقديرٍ عالٍ جداً ومنذ تلك اللحظة سعيتُ لحصد الماجستير وقدّمتُ رسالتي الموسومة بـ (البنية القويّة في تركيبة الشخصية العراقية) وحصلت على الماجستير بدرجة امتياز ، لأن رسالتي كانت جزءاً من مذكّراتي التي كتبتها بالعراق ، ما عانيته وما شاهدته هناك ، كان تفسيراً واضحاً للنفسية العراقية التي عانت الكثير مع تكالب الأزمان عليها لأنّ هذا المكوّن من الشعب لا يستحقّ كلّ هذا ، بل يستحقّ أن يمجّده التاريخ ، كان تفوّقي هذا في دراستي هو هديّتي الوحيدة التي أردت تقديمها إلى قبر أمي ، التي لم تفارقني في كلّ صغيرة وكبيرة فعلتها ، بعد أن قرأت لها سورة الفاتحة ، داعية الله أن يغفر لها لعدم دخولها في الدين الإسلامي والتنوّر والتمتّع بتعاليمه وأحكامه ، ذرفت الدموع على قبرها ، لكن لم تكن لدموعي فائدة في ذلك ، سوى ذكراها ، أطلعتها على رسالتي التي كانت جزءاً من همومي ومعاناتي عندما كنت أرتدي تلك الملابس الصفراء التي يشوبها بقع داكنة مرقّطة كالأفعى الخبيثة التي تزداد قبحاً ببقعها المتناثرة على جسدها هنا وهناك.

كم تمنّيتُ أن أكون واعية في تلك الفترة المظلمة التي غزوت بها شعباً كالعراق ولو كنت أدرك كما أدركت اليوم لما أقدمت على فعلتي هذه ، وبعد أن أفضيت لوالدتي كلّ ما في قلبي ، أودعت أمنياتي هناك فوق أرض تستحقّ أن تكون

مقبرة لأمانينا ، أرض كأرض العراق ، وكم اشتاق في لذّة الاحتراق أن أرى تلك البصمات التي تركتها هناك ، ليس بالملابس الصفراء ، ولكن بلباس مدني وكسائحة لأرض تستقطب السوّاح.